
روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
الضحايا
138
www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



د. نبيل فاروق

الضحايا

- هل يمكن أن يتجاوز (يورى ايفانوفيتش) كل قواعد الآدمية . فى مواجهة العالم أجمع ؟!
- ماذا يفعل (أدهم) . عندما يواجه خصما . لايتورع عن القيام بأى عمل كان ؟!
- ترى كيف يواجه (أدهم) هذا التحدى الجديد . الذى تساقط أمامه مئات (الضحايا) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة . وشارك بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) ..

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

138



(الوحش الآدمى)

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- انهيـار..

سرت موجة عنيفة من التوتر، فى جسد نائب مدير المخابرات العامة المصرية، وهو يدلف إلى حجرة المدير، حاملاً البرقية العاجلة الطارئة، التى أرسلها أحد المراقبين من (موسكو)، وبدا توتره شديد الوضوح فى صوته وكلماته، وهو يضع البرقية أمام المدير، قائلاً:

- الموقف خطير للغاية يا سيادة المدير.

سأله المدير فى توتر مماثل، وهو يلتقط البرقية فى قلق:

- هل أوقعوا (ن - ١)؟!

اعتدل النائب، وهو يقول بنفس التوتر:

- هذه البرقية توحى بأنها مسألة لحظات يا سيدى.. للأسف.

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يطالع البرقية باهتمام بالغ ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، دون أن يرفع عينيه عنها ، وهو يقول فى خفوت :

ـ آه .. موقف شديد التعقيد بالفعل .

نطقها ، وذهنه يسترجع تلك الأحداث الرهيبة كلها ..

يسترجعها منذ سقط (أدهم) فاقد الوعى ، على ثلوج (موسكو) ، بعد أن قتل زعيم عصابات (المافيا) الروسية (إيفان إيفانوفيتش)[*] ..

كان صراعًا شديد العنف ، خاضه فريق خاص ، انتقاه (أدهم) بعناية فائقة ، وقاده ببراعة منقطعة النظير ، حتى اضطر للتدخل بنفسه ، وحسم المسألة على نحو بالغ العنف ..

ولأن جسده البشرى لم يكن باستطاعته احتمال كل هذا ، فقد سقط ..

(*) راجع قصة (الأبطال) .. المغامرة رقم (١٣٤)

سقط (أدهم صبرى) ، رجل المستحيل ، وانهار على جليد (موسكو) ..

وتحت حماية فريقه الشاب ، تم نقل (أدهم) إلى المركز الطبى الخاص ، بقاعدة الفضاء الروسية ، ليعالجه فريق من كبار الأطباء الروس ، تحت إشراف شقيقه الدكتور (أحمد) شخصيًا ..

ولكن (المافيا) الروسية لم تكن قد انتهت بعد ..

فمع سقوط رأس الأفعى ، نبت لها رأس جديد ..

(يورى إيفانوفيتش) ، شقيق (إيفان) ، نصف العبقرى ، ونصف المجنون ، تولّى قيادة المنظمة الإجرامية ، خلفًا لشقيقه ..

وكان هذا يعنى بداية عهد جديد ..

وحرب جديدة ..

بلا هوادة ..

الزعيم الجديد لمنظمة (المافيا) الروسية ، قرّر

أن يستعيد هيبتها وسطوتها ، فانطلق يسعى خلف (أدهم) وفريقه ، وخلف (منى) و(قدرى) ، والدكتور (أحمد صبرى) أيضًا ..

وبمعجزة ، ومع تعرُّض رفاقه للخطر ، استعاد (أدهم) وعيه ، ووثب إلى قلب المعركة ، بكل عزمه ، وحزمه ، وقوته ، وقدراته المدهشة ..

وكانت مفاجأة للزعيم الإجرامى الروسى ، وكل من خلفه ..

الفرائس تحولت إلى أسود قوية ، وحولت موقعها ، من الدفاع إلى الهجوم ..

وتوالت الأحداث على نحو مخيف ..

الجنرال (جوزيف كواليسكى) ، رجل المخابرات الروسى دسّ أنفه فى المعركة ، ورتّب محاولة لاغتيال زميله (سيرجى كوربوف) ، ثم ألصق التهمة لـ (أدهم) وفريقه ورفاقه دفعة واحدة ..

وسقط الكل بين المطرقة والسندان ..

(روسيا) كلها أصبحت تطاردهم ، بشقيها ، الرسمى والإجرامى ..

ومن المؤكَّد أن (يورى إيفانوفيتش) كان عبقريًا إلى حد مخيف ، على الرغم من لمحة الجنون الواضحة فى شخصيته ..

لقد كشف كل خططهم ، وأطلق ذئابه كلها خلفهم ، مما أسفر عن سقوط الفريق كله فى قبضته وقبضة المخابرات الروسية ..

وانطلق (أدهم) يواجه هذا بكل غضبه ، وخاصة بعد أن اختطف رجال (المافيا) الروسية زميلته (منى) ، واغتالوا قائد فريقه الصغير ، النقيب (علاء) الذى بذل آخر قطرة من دمه ، لتنفيذ أوامر (أدهم) ، أستاذه وقائده ..

ومرة أخرى ، أجاد (يورى) اللعبة ، على الرغم من انشغاله فى الإعداد لأخطر عملية إرهابية وحشية عرفها التاريخ ..

ومن خلال الجنرال (كواليسكى) ، الذى يعمل سرًا لحساب (المافيا) الروسية ، تم الإيقاع بـ (أسعد) مدير مكتب المخابرات المصرية فى (موسكو) ، فى المنزل الآمن الجديد ، الذى انتقل إليه مع (أدهم) بعد سقوط الفريق ، فى المنزل الآمن الأوّل ..

وبخطة محكمة ، تمت محاصرة المبنى كله ، فى انتظار وصول (أدهم) ..

ووصل (أدهم) ..

ودخل الفخ بقدميه ..

وبإشارة من (كواليسكى) ، وفى لحظة واحدة ، انطلق جيش من رجال المخابرات الروسية نحو المبنى ، من السطح ، والمدخل الرئيسى ، والشوارع الجانبية ، ومن داخل المنزل الآمن الجديد أيضًا ..

وكان هذا يعنى أن (أدهم) قد سقط ..

سقط فى الفخ ، الذى أطبق فكيه عليه ..

بلا رحمة ..

أو هوادة(*) ..

وهذا ما رصده المراقبون السريون ..

وما أبرقوا به فورًا للمخابرات العامة المصرية فى (القاهرة) ..

وباهتمام بالغ ، يفوق المعتاد ، راجع المدير البرقية مرتين ، قبل أن يغمض عينيه ، ويغرق فى التفكير لبضع لحظات ، ثم يغمغم :

ـ الملازم (ريهام) .

خُيّل لنائبه أنه لم يلتقط الكلمة جيدًا ، فمال برأسه يسأله فى حذر :

ـ من ؟!

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الثلاثة الأولى (الأستاذ) ، و(المقامرة الكبرى) ، و(مدينة الذئاب) .. المغامرات أرقام ١٣٥ ، و١٣٦ ، و١٣٧ .

فتح المدير عينيه ، واعتدل ، قائلاً فى حزم عجيب :

ـ الملازم أول (ريهام) .

سأله النائب فى حيرة :

ـ ماذا عنها ؟!

أجابه المدير ، فى حزم أكبر :

ـ هل نفذت خطة (ن ـ ١) بحذافيرها ، قبل أن تسقط فى قبضة أوغاد (المافيا) الروسية ؟!

تضاعفت حيرة النائب ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم أنهم ينفذون أوامر سيادة العميد (أدهم) فورًا ، ودون أدنى مناقشة يا سيدى .

تنهّد المدير ، وتسللت إلى شفتيه ابتسامة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. لو أنها قامت بعملها كما ينبغى ، لن يكون موقف (ن ـ ١) بالسوء الذى تتصوّره .

تنحنح النائب فى حرج ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيادة الوزير (*)، ولكن سيادة العميد (أدهم) محاصر فى المنزل الآمن الجديد ، وليس ذلك الذى ..

قاطعه المدير ، وابتسامته تتسع أكثر ، وهو يقول فى ثقة :

ـ أعلم هذا ..

واتسعت عينا النائب فى مزيج من الدهشة والحيرة ..

فهو لم يفهم ما تعنيه ابتسامة المدير هذه !!

لم يفهم أبدًا ..

* * *

« أسرع يا رجل .. أسرع .. »

شعر رجل المخابرات الروسى بتوتر بالغ ، مع

(*) مدير المخابرات العامة دائمًا فى درجة وزير .

ذلك الهتاف ، الذى أطلقه (سيرجى كوربوف) بعصبية صارمة ، لا تتناسب مع برودة التقليدى ، فضغط دواسة الوقود بحركة غريزية ، وهو يقول :

- إننا ننطلق بأقصى سرعة تصلح لشوارع (موسكو) ، وسط هذا الجليد المنهمر يا كولونيل .

صاح به (سيرجى) فى حدة :

- ننطلق بسرعة لا تصلح لأية شوارع .

ثم انعقد حاجباه الكثان فى شدة ، وهو يضيف :

- المهم أن نصل فى الوقت المناسب .

مطَّ رجل المخابرات شفتيه ، وهو يقول فى عصبية :

- لست أدرى ما الذى يثيرك إلى هذا الحد يا كولونيل !! لقد حاول ذلك المصرى قتلك ، و ...

قاطعه (سيرجى) فى صرامة :

- حالتى الصحية لا تسمح لى بسماع سخافات ، فإما أن تتحدث بأمور يقبلها العقل ، أو تصمت وتكتفى بالقيادة .

غمغم رجل المخابرات فى توتر :

- أنت ترفض تصديق هذا .

عضَّ (سيرجى) شفته السفلى ، ليكتم آلامًا تصاعدت فى صدره ، قبل أن يقول فى عصبية أججها الألم :

- ليس منكم من يعرف (أدهم صبرى) مثلما أعرفه .. إنه لن يقدم أبدًا مهما كانت الظروف والعواقب ، على عمل قذر ، أو ينطوى على غدر وخسة .

قال رجل المخابرات فى حدة :

- هل نسيت أنه أطلق النار على (إيفان) وهو أعزل ؟!

رفع (سيرجى) أحد حاجبيه الكثين ، قائلاً :

- لم يطلق النار على ظهره ، ولم ..

بتر عبارته بغتة ، مع دوى الانفجار ، الذى تناهى إلى مسامعه من بعيد ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ رباه ! لقد تأخرنا كثيرًا .

ولسبب ما ، وجد رجل المخابرات الآخر نفسه يضغط دواسة الوقود أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ففى أعماقه ، تصاعد شعور قوى ، بأن هذا الانفجار يرتبط حتمًا بذلك المصرى ..

الرجل ..

رجل المستحيل ..

* * *

فجأة انتبه (أدهم) إلى ما يحدث ..

فجأة ، أدرك أنه قد سقط فى فخ دقيق محكم ..

ففى لحظة واحدة ، التقطت أذناه وقع الأقدام ، التى تعدو داخل المنزل الآمن ، وفى الشوارع الجانبية ، وعلى السطح ، وفى مدخل البناية ..

أقدام ثقيلة ، داخل أحذية سميكة ، مع صوت أسلحة تستعد فى تحفز لاصطياد فريسة منفردة غافلة ..

فى اللحظة التى أدرك هذا ، كان الفخ قد أطبق فكيه ..

بلا رحمة ..

وفى عنف وشراسة بلا مثيل ، انقضّ الكل على (أدهم) ..

من كل الجبهات ..

ومن موقعه عند المبنى ، شاهد (كوالسكى) تلك الانقضاضة الرهيبة ، فصرخ فى ظفر جنونى :

ـ لقد أوقعنا به .

فى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها صرخته الظافرة ، تحرك (أدهم) ..

كان فريق من الرجال يندفع نحوه ، من داخل المنزل الآمن ، عندما التقط هو من جيبه جهاز توجيه عن بعد ، وضغط زره الوحيد مرة ..

ومع الضغطة ، دوى الانفجار ..

انفجار عنيف ، أطاح بمدخل المنزل ، وبجزء من أرضيته ، وأعاد رجال المخابرات الروسية إلى الداخل بموجة تضاغط شديدة ، ألقتهم أرضًا ، والذهول يمتزج بالذعر فى أعماقهم ووجوههم ..

وقبل حتى أن تسقط أجسادهم أرضًا ، كان (أدهم) يضغط زر جهاز التحكم عن بعد مرة ثانية ..

وكانت مفاجأة جديده للفريق الثانى ، الذى يعدو فوق درجات السلم ..

انفجار ثان ، نسف السلم من منتصفه ، فانهار كله دفعة واحدة ، وتساقط الرجال فى عنف ، وارتطمت

أجسادهم بالأرض فى قوة ، وتناثرت أسلحتهم على مساحة واسعة ، وامتزجت بالغبار والدماء ..

وضغط (أدهم) الزر مرة ثالثة ..

ورابعة ..

وخامسة ..

ومع ضغطاته توالت الانفجارات ..

وعلى نحو شديد الدقة والتنسيق ..

انفجار نسف درجات السلم ، التى تقود إلى سطح المبنى ؛ ليقطع الطريق أمام فريق الهجوم العلوى ..

وثان نسف مدخل البناية ؛ ليمنع تدفُّق المزيد من المقاتلين ..

أما الانفجار الثالث والأخير ، فكان أعجبها ..

وأكثرها دقة ..

فمع الانفجارين الأخيرين ، ومع ما صاحبهما من

اضطراب وهرج عارمين ، وما تصاعد منهما من نيران ، ودخان ، وغبار ، انطلق (أدهم) يعدو عبر ردهة الطابق ، نحو ذلك الجدار فى نهاية طرفها الأيسر ..

وكان الانفجار الأخير ، المحدود ..

انفجار نسف ذلك الجزء من الجدار ، وأسقط قائمًا خشبيًا دعائيًا ، من أعلى المبنى ، يتدلى منه حبل سميك ..

ومن موقعه عند المبنى المقابل ، ووسط كل غضبه وثورته وذهوله ، شاهد الجنرال (كواليسكى) خصمه اللدود (أدهم) ، وهو يثب عبر تلك الفتحة ، التى صنعها الانفجار الأخير ، ليتعلق بالحبل السميك ، ويندفع معه فى دائرة واسعة ، قبل أن يفلته ، ويقفز إلى سطح المبنى الخلفى ..

وفى ذهول غاضب ، هتف (كواليسكى) :

ـ لقد أعدّ كل هذا مسبقًا .

ثم انتفض جسده كله بمنتهى العنف ، وهو يصرخ فى ثورة عارمة مكررًا :

ـ لقد أعدّ هذا مسبقًا .

وقبل حتى أن تنتهى صرخته ، كان قد اختطف جهاز الاتصال اللاسلكى ، ليواصل صرخته بغضب لامحدود :

ـ لاتسمحوا له بالفرار .. انطلقوا خلفه .. انطلقوا خلفه أيها الأغبياء .

كان رجاله (المحترفون) غارقين حتى آذانهم ، فى حالة الاضطراب والفوضى ، التى صنعتها تلك الانفجارات العنيفة المباغتة ، إلا أن فريقًا منهم انتزع نفسه من كل هذا ، وانطلق ينفذ أوامر قائده ..

وبنفس الغضب والثورة ، صرخ (كواليسكى) ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ حاصروا المنطقة كلها .. أريد طائرة هليكوبتر .. بل طائرتين .. أريد فرقة إضافية أيضًا .. وبأقصى سرعة ..

وأنهى الاتصال ، ليهتف بكل الغضب :

ـ كيف يفعلها ذلك المصرى ؟! كيف ؟!

وانعقد حاجباه فى شدة ، قبل أن يضيف فى عصبية :

- أظننا بحاجة إلى قوة إضافية ؟

حدّق فيه مساعده بدهشة ، وهو يقول فى حذر :

- قوة إضافية ؟! سيّدى .. لقد استنفرنا جيشًا ، لمطاردة رجل واحد ، و ..

قاطعه الجنرال بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

- اصمت .

ثم التقط هاتفه المحمول ، وضرب أزراره فى سرعة ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، ويقول بكل عصبية الدنيا :

- (زوشا) .. إنه أنا .. (كوالسكى) .. صلينى بـ (يورى) .. فورًا .

قالها ، وحاجباه يزدادان انعقادًا ، كما لو أنه يحمل فى أعماقه كل غضب الدنيا ..

وبلا حدود ..

* * *

عقد (يورى إيفانوفيتش) حاجبيه فى شدة ، وتراجع فى مقعد السيارة ، التى تقودها حارستة الخاصة (زوشا) ، وهو يخفض الهاتف المحمول ، ويشرد ببصره فى تفكير عميق ، فغمغمت (زوشا) فى حذر :

- هل أوقعوا بالمصرى ؟!

تمتم بخفوت شديد :

- إنهم أوهى من أن يفعلوا .

سألته فى اهتمام :

- (كوالسكى) كان يطلب دعمًا .. أليس كذلك ؟!

تجاهل سؤالها تمامًا ، وهو يسبل جفنيه ، ويغرق مرة أخرى فى تفكيره العميق ، فازدردت لعابها فى توتر ، وسألته :

- هل سنرسل إليه دعمًا ؟! أعنى بعض الرجال والأسلحة ، و ...

لم يبد حتى أنه يسمعها ، فأطبقت شفتيها ، باثرة

عبارتها ، والتقى حاجباها فى غضب ، وهى تواصل قيادة السيارة بعض الوقت ، قبل أن يعجز فضولها الأنثوى عن الاحتمال ، فتقول فى شىء من العصبية :

- الوقت له قيمته ، فى مثل هذه الأمور ، ولو أننا ..

قاطعها بصرامة مفاجئة قاسية :

- اصمتى .

أطبقت شفتيها فى غضب ، دفعها إلى الضغط أكثر على دواسة الوقود ، لتشق بهما السيارة شوارع (موسكو) ، التى يغطيها الجليد المنهمر ، بسرعة كبيرة نسبيًا ، و ...

« لاجدوى من هذا .. »

نطقها (يورى) فجأة ، وهو يعتدل فى مقعده بحزم ، فأطبقت شفتيها أكثر ، خشية أن يسىء إليها مرة أخرى ، فتابع فى صرامة وحشية :

- (كواليسكى) تحدث بغضب وعصبية بالغين ، وثورته هذه تعنى أن خطته فى اصطياد خصمه المصرى

قد فشلت على نحو ذريع ، وأن (أدهم) هذا قد سيطر على الموقف مرة أخرى .

التقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تقول :

- ربما لو أرسلنا بعض الرجال و ...

قاطعها بصرامة شديدة :

- أنت قلتها .. الوقت له قيمته ، فى مثل هذه الأمور ، وخصمنا عبقرى فى التعامل مع هذه القاعدة ، والوقت الذى سيستغرقه رجالنا ، ليصلوا إلى ذلك الأحمق (كواليسكى) ، سيبلغ عشرة أضعاف الوقت ، الذى يحتاج إليه المصرى ، ليتلاشى من الوجود تمامًا .

ثم برقت عيناه ، وهو يضيف فى وحشية :

- وهذه ليست الوسيلة المثلى ، للتعامل مع أمثاله .

رمقته بطرف عينيها ، وهى تنحرف بالسيارة نحو مصنع ألبان قديم ، قائلة :

- وما الذى تنوى فعله بالضبط أيها الزعيم ؟!

التمعت عينى (يورى) أكثر ، وهو يجيب بلهجة دموية مخيفة :

ـ الكثير يا (زوشا) .. سأفعل ما يحطّم أنف ذلك المصرى ، ويسحق بطولاته هذه ، ويمحو سجله الحافل ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف بكل مقت وشراسة الدنيا :

ـ وإلى الأبد .

نطقها ، فى نفس اللحظة التى توقّفت فيها السيارة ، داخل ساحة المصنع ، استعدادًا للجولة القادمة ..

الحاسمة ..

والعنيفة ..

للغاية ..

* * *

« سننقسم إلى ثلاث فرق .. » ..

صاح قائد فريق المطاردة الروسى بالعبارة ، وهو يشير إلى رجاله ، مستطردًا فى صرامة :

ـ كل فريق من خمسة رجال .. سنحاصر مجموعة المبانى المجاورة ، ونمشّط أسطحها شبرًا شبرًا .. رفاقنا يحاصرون المنطقة كلها بالفعل ، وطائرتنا الهليكوبتر فى الطريق .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف بكل الصرامة :

ـ خصمكم شديد القوة والبراعة ، ولاتوجد أية أوامر ، تحتم الإيقاع به على قيد الحياة .. هل تفهمون ؟!

أدرك الرجال ما يعنيه على الفور ، فتبادلوا نظرة متألّقة ، قبل أن يهتف بعضهم بكل الحماسة والحزم :

ـ بالتأكيد يا كولونيل .

نطقوها ، ثم انطلقوا ينتشرون فى أسطح المبانى المحيطة بالمبنى الرئيسى ، الذى شهد الانفجارات ..

وفى خفة وقوة ، راح الفريق الشرقى يثب ، من سطح إلى آخر ، ويمشّط كل سطح بمنتهى السرعة ، والدقة ، والتحفّز ..



ومع استدارته ، شاهد (أدهم) يثب نحوهم من فوق غرفة المصعد على السطح ، فصرخ : ـ ها هو ذا !..

ثم لاحت طائرتا الهليكوبتر من بعيد ، فرفع أحد مقاتلى الفريق رأسه ، يتطلع إليهما ، قائلاً :

ـ آه .. لقد وصلتا .. سيساعدنا هذا كثيراً ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما وقع بصره على ذلك الظل ، الذى سقط إلى جوارهم ، وهو يتحرك بسرعة مدهشة ..

وبكل سرعته ، استدار الرجل ، وارتفعت فوهة مدفعه الآلى فى حركة غريزية متحفزة ..

ومع استدارته ، شاهد (أدهم) يثب نحوهم ، من فوق غرفة المصعد على السطح ، فصرخ :

ـ ها هو ذا .

ومع صرخته ، ضغطت سبابته زناد مدفعه الآلى ، فانطلقت الرصاصات ..

وعلى السطح تفجرت الدماء ..

وبمنتهى العنف .

* * *

٢ـ العصابة ..

« أنت المسئول يا (بورى) .. أنت بدأت كل هذا .. »

صرخ (يان جوجول)، أحد زعماء (المافيا) الروسية بالعبارة، فى غضب هادر، وهو يلوّح بسبابته فى وجه (بورى إيفانوفيتش)، عبر مائدة الاجتماعات الكبيرة، التى تملأ ساحة مصنع الألبان القديم، قبل أن يستطرد، وجسده كله ينتفض فى عنف:

ـ لقد أصابتك الزعامة بجنون السلطة، وأردت أن تشاركنى أرباحى، وعندما رفضت، دمّرت مستودع سياراتى بأكمله، دون رحمة أو هوادة، وكل ما فعلته هو أن رددت الضربة، وسحقت تلك الاسطبلات سحقًا.

توترت كل عضلة فى جسد (زوشا)، وانعقد حاجباها فى شدة، وهى تقف فى ركن القاعة، وأدارت بصرها فى وجوه الحراس المرافقين للزعماء، وهى تتحسّس

المسدس المختفى فى ثيابها بتحفّز حذر، قبل أن يستقر نظرها على (بورى)، الذى توقّعت أن يغضبه أسلوب (يان) حتى النخاع، ولكن حاجباها فارقا انعقادهما، وهما يرتفعان فى دهشة، مع ذلك الهدوء الشديد، الذى ساد ملامحه، على الرغم من صرامة نبراته، وهو يقول:

ـ أنت أحمق يا (يان).

حدّق الزعماء فيه بدهشة بالغة، فى حين ارتدّ (يان) فى عنف كالمصعوق، وهو يهتف فى استنكار عصبى:

ـ أحمق ؟!

التقى حاجبا (بورى) فى شدة، وهو يهبّ من مجلسه بحركة مباغتة، صائحًا بكل غضب الدنيا:

ـ نعم .. أحمق وغبى أيضًا؛ بدليل أن ذلك المصرى قد نجح فى خداعك، وإثارة أعصابك، ودفعك إلى الإقدام على تصرّف سخيف غبى، دون أن تتمهّل لحظة للتفكير.

بُهت (يان) ، وهو يحدّق فيه بضع لحظات ، فى دهشة بالغة ، ثم لم يلبث أن هتف فى غضب :

ـ اسمع يا (يورى) .. لو أنك تحاول أن ..

قاطعه (يورى) فى صرامة شديدة ، وكأنه لم يسمعه :

ـ يبدو أنكم لا تدركون جميعًا أننا نواجه خصمًا غير تقليدى ، تهابه وتخشاه أجهزة مخابرات قوية لدول عظمى .. خصم سبق له أن هزم وحطّم عددًا من أقوى منظمات الجاسوسية فى العالم .

غمغم أحد الرجال ، فى دهشة حذرة :

ـ إنه مجرّد رجل واحد .

لوّح (يورى) بذراعه ، وهو يهتف فى سخرية غاضبة :

ـ رجل واحد ؟! هه .. لم أسمع فى حياتى كلها عبارة أكثر غباءً وسخافة .

ثم اختطف ملفًا أمامه ، وألقاه بامتداد ذراعه إلى منتصف المائدة ، مستطردًا بنفس الغضب الساخر :

ـ ها هوذا إذن ملف ذلك الرجل الواحد .. طالعوه يا عباقرة (المافيا) العظام ، وستدركون أن ذلك الرجل الواحد كان يومًا بمثابة جيش جرار ، وهو يحطم أنوف العشرات من أمثالكم ، الذين رفضوا مواجهة الواقع ، وأصرّوا على التعامل معه باعتباره مجرّد رجل واحد .

تطلّع (يان) ، مع باقى الزعماء ، إلى الملف الملقى على المائدة ، قبل أن يقول فى توتر ، وإن انخفض صوته كثيرًا :

ـ لقد ميّزت صوتك جيدًا عبر الهاتف .

هتف (يورى) :

ـ بالتأكيد .. ولو أنك راجعت ملف ذلك الرجل الواحد ، لأدركت أنه موهوب بشدة ، فى مجال تقليد الأصوات ، والتنكر ، وتقمص الشخصيات بدقة مذهلة ، حتى إنه يستطيع انتحال هيئتك ، فلا تدرك أمك نفسها أيكما ابنها .

اتسعت العيون فى ذهول ، وغمغم أحدهم ، وهو يلتقط الملف فى حذر :

ـ مستحيل !

ترك (يورى) موقعه ، وراح يتحرك ، فى ساحة المصنع ، وهو يقول فى صرامة :

ـ بالضبط .. ولهذا حمل ذلك المصرى ، فى كل سجلات أجهزة المخابرات الأخرى لقبًا اتفق عليه الجميع .. لقب (رجل المستحيل) ، هذا لأنه يمتلك مجموعة مواهب وقدرات مدهشة ، أهلته للسيطرة على عالمه سيطرة شبه كاملة ، فلم ينهزم قط .

وتوقف بغتة ، ثم التقى حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ حتى الآن .

كرّر (يان) ، والحيرة تملأ نبراته :

ـ ولكننى ميّزت ..

قاطعه (يورى) بصوت غاضب هادر :

ـ (يان) .. ألم تستوعب الأمر بعد أيها الأحمق ؟!

استدار إليه الجميع ، وعيونهم تحمل استسلامًا عجيبًا ، فتابع بنفس الصرامة الهادرة :

ـ خصمنا يستغل مواهبه وخبراته ؛ ليلعب معنا لعبة قديمة ، ابتكرها البريطانيون ، منذ بدءوا عهودهم الاستعمارية .. لعبة اسمها (فرّق تسدْ) .. إنه يحاول التفرقة بيننا ، وبث روح الفرقة فى صفوفنا ، حتى يضعف أمرنا ، وتتكسر شوكتنا ، وننشغل بصراعات سخيفة داخلية ، ليمنحه هذا فرصة القضاء علينا جميعًا ، بأقل جهد ممكن .

غمغم أحدهم فى خشونة :

ـ لقد كلفنا هذا الرجل الكثير .

هتف (يورى) :

ـ وسيكلفنا ما هو أكثر ، لو لم ندرك لعبته ، وننتبه إلى غايته ، ونتحرك بعقل وحكمة وذكاء ، لاستعادة السيطرة على الموقف كله .

خيّم عليهم الصمت والوجوم ، فتابع بنفس اللهجة :

ـ لقد طالعت معظم ملفه ، خلال الساعة الأخيرة ، ولاحظت أن ما يفعله معنا ليس بجديد .. لقد نفذ الخطة نفسها مع منظمة (المافيا) الإيطالية ، وهزمها وحده هزيمة منكرة ، منذ بضع سنوات .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يعود إلى مقعده ، ويجلس عليه فى بطء ومهابة ، مستطردًا :

ـ ولن أسمح له بتكرار هذا معنا .

ران عليهم الصمت ذاته لدقيقة كاملة ، وكلهم يتطلعون إلى بعضهم ، قبل أن يقول أحدهم فى عصبية :

ـ الواقع أننا عاجزون عن فهمك يا (يورى) .

تألقت عينا (يورى) وخُيّل لـ (زوشا) أن العبارة قد راقته كثيرًا ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً فى هدوء عجيب :

ـ ولماذا ؟!

اندفع الرجل يقول فى حدة :

ـ كل شىء تفعله غير طبيعى ، وغير مألوف .. الاجتماع فى هذا المكان وحده أمر مثير للأعصاب .. إننا لا ندرى أبدًا أين أنت ، ولا كيف يمكننا أن نجدك !

أجابه (يورى) بمنتهى الهدوء :

ـ هذا ينطبق على الخصوم أيضًا .

خُيّل للرجل أنه لم يفهم ما يعنيه (يورى) ، فتمتم فى حذر :

ـ على ماذا ؟!

اعتدل (يورى) بحركة حادة ، مجيبًا فى صرامة مباغتة :

ـ الخصوم أيضًا يا رجل .. الأعداء .. هم أيضًا سيشعرون بالارتباك نفسه ، ولن يمكنهم أبدًا معرفة أين أنا ، ولا أين وكيف ندير اجتماعاتنا ، وهذا يضمن أكبر قدر ممكن من الأمن والحماية .

تراجع الرجل مبهوتًا بالجواب ، فى حين هتف أحدهم فى انبهار :

ـ هذا صحيح .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سرت همهمة بين الحضور ، ما بين مؤيّد ومعارض ، ثم لم يلبث أحدهم أن قال :

ـ شىء آخر لا يمكننا فهمه يا (يورى) .

انعقد حاجبا (يورى) هذه المرة ، وهو يسأل :

ـ وما هو ؟!

أجابه الرجل فى عصبية :

ـ كلنا نعلم أنك تسيطر على كل رفاق ذلك المصرى فى قبضتك ، فلماذا لا تستغل هذا لكسر عنقه ؟!

تزداد انعقاد حاجبى (يورى) ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ رفاقه هم خط دفاعنا الأخير ، لو لم نفلح فى إيقافه ، والقضاء عليهم سيحيله إلى وحش كاسر ، يسحق كل شىء فى طريقه .

قال آخر معترضًا :

ـ ليس بالضرورة .

أشار (يورى) إلى الملف فى صرامة ، قائلاً :

ـ (المافيا) الإيطالية قتلت واحدًا من رفاقه ، فدفعت الثمن كيانها كله .

تابع الرجل فى حزم :

ـ ما عنيته هو أنه ليس بالضرورة أن نقتلهم جميعًا .. يكفى أن نلعب معه لعبة الرهائن .. قتيل كل مرحلة زمنية ، حتى يستسلم .

انعقد حاجبا (يورى) أكثر وأكثر ، مع عبارات الاستحسان والتأييد ، التى أعقبت الاقتراح ، وتراجع فى مقعده بشدة ، على نحو جعل (زوشا) تتحفز للتدخل المحتمل ، قبل أن يعتدل فجأة ، قائلاً فى حزم :

ـ فليكن .

استدارت العيون كلها إليه ، فتابع بنفس الحزم :

- أعدكم أن يحمل صباح الغد مفاجأة صارخة لذلك المصرى .

وبدا وجهه أشبه بشيطان مريد ، وهو يضيف بكل مقت وصرامة الدنيا :

- مفاجأة ستزلزل كيانه .. حتى النخاع .

وكان فى هذا فصل القول ، فلم ينطق أحدهم بعدها بحرف ..

حرف واحد ..

* * *

لم يكد دوى الرصاصات يبلغ مسامع رجال [illegible] ، الذين انتشروا فى المنطقة كلها ، حتى تحركوا جميعهم ، على نحو غريزى تلقائى ، وانطلقوا يعدون من كل صوب ، نحو البقعة التى انبعثت منها الرصاصات ..

ولأن الرجال أقوياء مدربون ، فقد بلغوا الموقع خلال دقيقة واحدة ، وما إن بلغه أول فريق منهم ، حتى بدا لهم رجال فريق ذلك الموقع مبعثرين أرضًا ، فاقدى الوعى على السطح ، فيما عدا واحدًا منهم ، كان يواصل إطلاق مدفعه الآلى ، نحو الطرف الآخر للسطح ، والدماء تغرق ساقه ، وهو يهتف بعصبية باللغة :

- أوقفوه .. الحقوا به .. أسرعوا بالله عليكم .

وبنفس التلقائية الغريزية ، انطلق الرجال يعدون نحو البقعة التى أشار إليها ، ووثبوا إلى السطح المجاور ، وقائدهم يصرخ بهم :

- انتشروا فى المكان .. افحصوا كل الأسطح المجاورة .. لا تسمحوا له بالفرار أبدًا .

مع صرخته ، اعتدل ذلك الرجل ، على السطح الأول ، وأدار بصره يلقى نظرة على آخر فاقدى الوعى ، مجردًا من ثيابه ، خلف بروزات التهوية ، قبل أن يغمغم فى سخرية ، وباللغة العربية :

- ابحثوا جيدًا أيها العباقرة .

وفى نشاط لا يتفق مع إصابته الواضحة ، وثب إلى سطح آخر ، فى الاتجاه المعاكس لذلك الذى اتجه إليه الرجال ، وهو يرتدى الأسود ، المميز لمقاتلى المخابرات الروسية ، وتحرك فى سرعة ، جذبت انتباه الجنرال (كواليسكى) ، فى المبنى المقابل ، فانعقد حاجباه ، وهو يغمغم فى عصبية :

- هذا الرجل .. إنه ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، وهو يتابع الموقف ، عبر منظاره المقرّب ، قبل أن ينتفض جسده فى عنف ، ويهتف :

- إنه هو !!

هتف مساعده فى انفعال :

- هو ؟! هل تعنى ..

ثم التقط جهاز الاتصال اللاسلكى ، مستطردًا فى حدة :

سأبلغ الرجال كلهم ، و ...

قاطعه (كواليسكى) فى صرامة :

- لا وقت لهذا .

ثم خفض منظاره المقرّب ، والتقط بندقية القناصة ، المزوّدة بمنظار قوى ، وهو يضيف فى عصبية :

- لقد خدعهم مرة ، ولا أحد يدرى الذى سيفعله فى المرة التالية !

ورفع البندقية إلى كتفه ، وهو يستطرد فى حزم :

- فرصتنا هنا أكبر .

خفض (ليبروسكى) صوته ، وكأنما يخشى أن يسمعه (أدهم) ، وهو يسأل فى حذر شديد :

- هل تعتقد هذا ؟!

ألصق (كواليسكى) منظار البندقية بعينه ، وثبتها جيدًا بكتفه ، وتألقت عيناه ، وهو يضع هدفه فى موضع الإصابة تمامًا ، مغمغمًا :

- بالتأكيد .

كل ذرة فى كيانه كانت تشتعل بنشوة لا حدود لها ، وهو يتأكد من ملامح الهدف ، محكمًا التصويب على رأسه بتلك الدقة ، التى اشتهر بها فى صفوف القناصة ، فى الجيش السوفيتى سابقًا ..

وفى موقعه ، واصل (أدهم) تحركه بنشاط ، مبتعدًا عن رجال المخابرات الروس ، دون أن يدرك أن قائدهم كان يصوّب بندقيته إلى رأسه مباشرة ، وهو يتمتم فى انفعال جارف :

ـ الوداع يا عبقرى المخابرات المصرية .

وبكل الحزم والحسم ، ضغطت سبابته زناد بندقيته ..

وانطلقت الرصاصة ..

* * *

حمل صوت نائب مدير المخابرات المصرية رنة حزن واضحة ، وهو يستقبل المدير عند باب حجرة الاجتماعات الرئيسية بالمبنى ، قائلاً :

ـ لقد وصل جثمان النقيب (علاء) .

توقف المدير ، وارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ الآن ؟!

أومأ النائب برأسه إيجابًا ، وهو يتمتم :

ـ نعم .. الآن .. الطائرة الخاصة هبطت فى المطار منذ دقائق ، وينتظرون أوامرنا .

صمت المدير بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ الأمر محسوم ، منذ علمنا بما ينتويه (ن ـ ١) .. سننفذ كل ما أمر به السيد رئيس الجمهورية منذ ساعات ، فور علمه بالأمر .

ثم شدّ قامته ، مستطردًا :

ـ ستقام للنقيب (علاء) جنازة رسمية ، باعتباره أحد شهداء الواجب ، وسيتقدمها مندوب من هنا ، وآخر من رياسة الجمهورية ، مع حامل لنوط الشجاعة ، الذى منحه إياه سيادة الرئيس ، مع الترقية ، والمعاش الاستثنائيين .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف فى أسى :

ـ هذا أقل ما يمكن أن تقدّمه (مصر) لبطل مثله .

وعاد يلتقط نفسًا عميقًا ، متابعًا فى حزم :

ـ والآن دعنا نبدأ اجتماعنا ، حتى يتم إعداد أمر الجنازة الرسمية ، فالموقف فى (موسكو) لا يحتمل الانتظار ، و ...

قاطعه اندفاع مسئول الشفرة إلى المكان ، على نحو مباغت ، جعل المدير ونائبه يلتفتان إليه فى دهشة متوترة ، فلهث الرجل فى عنف وانفعال ، وهو يمدّ يده إليهما ببرقية قصيرة ، قائلاً :

ـ برقية عاجلة من (موسكو) يا سادة .

التقط المدير البرقية من يده ، والتهم كلماتها القليلة فى نظرة واحدة ، قبل أن يلتقى حاجباه فى شدة ، ويغمغم :

ـ يا إلهى !

ثم استدار ، وانطلق إلى حجرة الاجتماعات الرئيسية ، فى خطوات واسعة متوترة ، جعلت الرجال يتطلعون إليه فى قلق ، قبل أن يحتلّ مقعده ، على رأس المائدة ، ويشير إليهم بالجلوس ، ثم يدير بصره فى وجوههم جميعًا ، قائلاً فى لهجة تشفّ عن أهمية وخطورة الأمر :

ـ الهدف من اجتماعنا هذا سيتغيّر أيها السادة ، فقد وصلتنا برقية عاجلة من (موسكو) تحمل خبرًا خطيرًا .. خطيرًا إلى أقصى حد ممكن .

ومع قوله هذا ، هوت قلوبهم بين أقدامهم ..

بمنتهى العنف ..

* * *

« غبى .. (كوليسكى) هذا غبى .. » ..

صاح مدير المخابرات الروسية بالعبارة ، فى غضب هادر ، وهو يلوّح بذراعيه ، فى وجه رجله (بافلوف) ، ثم ضرب سطح مكتبه بقبضته ، فى قوة كادت تحطم زجاجه ، وهو يهتف فى حدة :

ـ حتى فى عملية مباشرة كهذه ، لم يستطع إنهاء الأمر فى حسم وهدوء ، وأشعل (موسكو) بعدد من الانفجارات ، التى ستبلغ مسامع الرئيس حتمًا .

حاول (بافلوف) تهدئته ، وهو يقول :

ـ (كواليسكى) يواجه خصمًا نعرفه جميعًا يا سيِّدى ، وهو ليس بالخصم السهل .. أراهن على أنه هو الذى أطلق كل هذه الانفجارات .

هتف المدير فى عصبية :

ـ كان ينبغى أن يمنع حدوث هذا .

غمغم (بافلوف) :

ـ أظنه قد بذل قصارى جهده .

استعاد المدير غضبه وعصبيته ، وهو يلوِّح بذراعيه مرة أخرى ، هاتفًا :

ـ لو أن هذا قصارى جهده ، فهو لايصلح للعمل معنا .

أخفى (بافلوف) ابتسامته ، وهو يقول :

ـ الجنرال (كواليسكى) واحد من أفضل رجالنا ياسيِّدى ، ولكن (أدهم صبرى) خصم جبار ، لو جاز القول .

لوَّح المدير بسبَّابته فى وجهه ، صائحًا :

ـ حتى ولو ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع رنين الهاتف الأحمر الخاص على مكتبه ، فاستقع وجهه ، وهو يلتفت إليه بحركة حادة ، قائلاً :

ـ الرئيس !!

نطقها بذعر واضح ، عجز معه (بافلوف) عن إخفاء ابتسامته ، فتركها تسلَّل إلى شفتيه ، ومن حسن حظه أن المدير لم ينتبه إليه ، وهو يثب ليختطف سمَّاعة الهاتف الخاص الساخن ، المتصل بالرئيس مباشرة ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا سيِّدى الرئيس .. إننى ..

بتر عبارته ، عندما قاطعه الرئيس ، هاتفاً فى حدة :

ـ ما هذه الكارثة يا مدير المخابرات ؟! كيف حدث هذا ؟!

امتقع وجه المدير وصوته ، وهو يزدرد لعابه فى صعوبة ، قائلاً :

ـ إنه خطأ (كواليسكى) يا سيادة الرئيس .. كان من المفترض أن يتم العملية فى هدوء ، ولكن ..

قاطعه الرئيس مرة أخرى فى عصبية :

ـ (كواليسكى)؟! فى هدوء ؟! ماذا أصابك يا رجل ؟! عمّ تتحدث ؟!

ازدرد المدير لعابه مرة أخرى ، فى صعوبة أكثر ، وهو يقول :

ـ عن تلك الانفجارات ، فى عملية (أدهم صبرى) ، و ....

قاطعه الرئيس بغضب هادر :

ـ أية انفجارات ؟! إننى لا أتحدث عن (أدهم صبرى) أيها السخيف .. إننى أتحدث عن الكارثة الأخرى .. الكارثة الكبرى .. عجبًا ! المفترض أن أحصل أنا على المعلومات منكم ، لا أن أمنحكم إياها .. لقد شغلكم السعى خلف ذلك المصرى ، حتى أوقفتم كل سبل معلوماتكم الأخرى .

التقى حاجبا المدير فى شدة ، وهو يتساءل بكل قلق الدنيا :

ـ عن أية كارثة تتحدث إذن يا سيادة الرئيس .

وما إن أخبره الرئيس بما لديه ، حتى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وانتفض قلبه بين ضلوعه ، ثم هوى بين قدميه ، بدوى تردد فى كل ذرة من كيانه ، حتى بلغ مخه ، وكاد يسحقه سحقًا ..

فالخبر الذى سمعه من الرئيس ، لم يكن مجرد كارثة ..

لقد كان مصيبة ..

مصيبة رهيبة ..

رهيبة ..

إلى أقصى حد ممكن .





٣ ـ الكارثة ..

لم يحظ (جوزيف كواليسكى) بهدف مثالى ، طوال عمله كقناص ، فى صفوف الجيش السوفيتى ، مثل (أدهم صبرى) ، فى تلك اللحظة ..

ففى زى مقاتلى المخابرات الروسية ، وذلك الجرح الزائف ، الذى اصطنعه بدماء من حطم أسنانهم وأنوفهم ، وأفقدهم وعيهم ، كان (أدهم) يتحرك على سطح المبنى فى خفة ونشاط ، دون أن يلمح خصمه وبندقيته ، اللذين يختفيان داخل المبنى المقابل ، فى ركن مظلم ..

وكانت فرصة نادرة ، لم يحظ خصم لـ (أدهم) بمثلها ، فى ظروف كهذه ..

لذا فقد صوّب (كواليسكى) بندقيته بمنتهى الدقة ، وسددها بغاية الإحكام ، ثم تحركت سبّابته على الزناد ، و ...

وفجأة، التفت أصابع قوية، تقبض على معصمه، وتدير فوهة البندقية، فى نفس اللحظة التى اعتصر فيها زنادها ..

وانطلقت الرصاصة ..

ومن موقعه، شاهد (أدهم) وميض الطلقة، وسمع دويها، فوثب من مكانه، واختفى بين بعض إنشاءات السطح، فى نفس اللحظة التى التفت فيها (كواليسكى)، بكل غضب الدنيا، إلى صاحب الأصابع، التى جعلته يخطئ هدفه الثمين، وهو يصرخ فى جنون :

ـ أيها الـ ...

ارتطم بصره بعينى زميله (سيرجى كوربوف)، اللتين اشتعلتا بنيران الغضب، وهو ينتزع البندقية منه، قائلاً :

ـ كنت سترتكب أكبر حماقة عرفها عالمنا .

صرخ (كواليسكى) فى ثورة :

ـ بل كنت سأقضى على أكبر عدو لنا، فى العالم أجمع، وأنت أضعت الفرصة بتدخلك الأحمق .

نقل (ليروسكى) بصره بينهما فى عصبية، قبل أن يختطف جهاز الاتصال اللاسلكى؛ ليحدد للرجال موقع الهدف، الذى خدعهم مرتين ..

أما (سيرجى) فقد بدا صوته وكأنما يحمل صرامة الدنيا كلها، وهو يقول :

ـ لسبب ما، يبدو لى أن أعداءنا يكمنون فى الداخل، بين صفوفنا، وليس خارجنا يا جنرال .

لوّح (كواليسكى) بسبابته فى وجهه، صارخاً :

ـ أنت قلتها : أنا جنرال، وهذا يعنى أننى أعلى منك رتبة يا كولونيل (كوربوف)، وهذا لايمنحك الحق فى أن تفعل ما فعلت، دون أوامر من سلطة أعلى .

اعتدل (سيرجى)، فى وقفة باردة صارمة، وهو يقول :

ـ حقًا ؟! فلنحتكم إذن إلى تلك السلطة الأعلى ياجنرال ومن خلال تحقيق رسمى، على أرفع مستوى؛

فهناك أمور عديدة ، تحتاج إلى تفسير وتوضيح ، وعلامات استفهام كبيرة ، تستدعى الحصول على أجوبة مباشرة ومقنعة .

صاح (كواليسكى) فى حدة :

- هل تهددنى يا كولونيل ؟!

أجابه (سيرجى) فى برود :

- لو أنه لديك ما يستحق التهديد يا جنرال .

احتقن وجه (كواليسكى) فى غضب ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها رنين هاتفه المحمول ، فأسرع مساعده (ليروسكى) يلتقطه ؛ ليجيب النداء ، فى حين صاح الجنرال فى وجه (سيرجى) :

- أنت أيضًا سيكون عليك أن تفسّر خروجك من قسم العناية المركزة ، فى مثل هذه الظروف ، ودون إخطار مسبق ، وسعيك لإنقاذ حياة شخص ، اعتبره قادتنا عدوًا لدودًا للنظام كله ، و ...

قاطعه (ليروسكى) فى تلك اللحظة ، وهو يمدّ يده إليه بهاتفه الخلوى ، قائلاً بصوت ووجه شاحبين :

- سيّدى الجنرال .. من الأفضل أن تتلقّى هذا بنفسك .

صاح به (كواليسكى) فى عصبية :

- هل فر منهم (أدهم صبرى) مرة أخرى ؟!

هزّ (ليروسكى) رأسه ، مجيبًا بصوت ووجه أكثر شحوبًا :

- إنه ليس بشأن المصرى يا سيّدى الجنرال .. إنه أمر آخر .. أمر أكثر خطورة .. أكثر بكثير .

وفى مثل هذه الظروف ، كان وقع كلماته مخيفًا .. للغاية ..

ففى مطاردة كهذه ، ما الذى يمكن أن يكون أكثر خطورة ؟!

وبكثير ؟!

* * *

« سرقة مخزون غاز الأعصاب والغازات السامة بالكامل ، من أحد أهم وأكبر مخازن الحرب الكيماوية الروسية .. »

نطق المدير بالعبارة فى بطء وتركيز ، على نحو جعل عيون الرجال تتسع عن آخرها ، ودفع أحد الرجال إلى أن يهتف فى توتر لا محدود :

ـ مستحيل ! إنها كارثة عالمية ، تحت أى مقياس يا سيادة المدير ، فمخزون كهذا يكفى لإبادة قارة كاملة ، لو تم استخدامه بوساطة خبراء .

أشار إليه المدير ، قائلاً :

ـ بالضبط .. ومن الواضح أن العملية كانت مدُبرة على نحو جيّد ، وبتخطيط مسبق ، فعلى الرغم أن المخزن قد تم اقتحامه بعملية عسكرية عنيفة ، أسقطت أكثر من عشرة قتلى ، مع ستة من المصابين ، إلا أن المقتحمين كانوا يعرفون هدفهم وطريقهم جيّدًا ، مما يؤكد وجود خائن داخلى .

تساءل أحد الرجال :

ـ هل أعلنت أية جهة مسئوليتها عن الحادث ؟!

هزّ المدير رأسه نفيا ، وقال :

ـ الواقعة حدثت منذ أقل من الساعة ، ولم تحدث أية تطورات بعد .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وأظن أن الجهة ، التى قامت بهذه العملية الضخمة ، لن تعلن مسئوليتها عن الأمر بهذه السرعة .

اندفع أحد الرجال ، يقول :

ـ بالتأكيد .. ليس قبل أن ترتّب أوضاعها .

أشار إليه المدير ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم مال على مائدة الاجتماعات ، متابعًا فى حزم :

ـ أوّل ما ينبغى توقّعه ، هو أن تحاول تلك الجهة

لنقل أسطوانات الغاز إلى أكبر عدد من الدول ، حتى يمكنها فرض شروطها على العالم أجمع ، عندما تحين اللحظة المناسبة .. لذا فأهم ما ينبغى أن نفعله ، هو تأمين حدودنا البرية ، والبحرية .. والجوية أيضًا .

قال رجل مخابرات فى قلق شديد :

- الغاز يمكن إطلاقه من أية دولة قريبة ، (إسرائيل) على سبيل المثال .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول فى صرامة :

- هذا أمر سابق لأوانه ، وكل ما علينا هو أن نتخذ كل الاحتياطات اللازمة ، وفقًا لخطة الطوارئ ، الخاصة بمثل هذه المخاطر .

دلف مسئول الشفرة إلى الحجرة ، فى تلك اللحظة ، فاستدارت إليه كل العيون ، وأشار إليه المدير ، قائلاً فى اهتمام :

- برقية جديدة ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وهو يتجه نحوه مباشرة ، ويناوله البرقية ، ثم يتراجع فى سرعة مغادرًا الحجرة ، فى حين فضَّ المدير البرقية ، والتهم كلماتها فى سرعة كعادته ، قبل أن تتراقص على شفتيه ابتسامة ، جعلت أحد الرجال يسأل فى اهتمام بالغ :

- أهى أخبار سارة ؟!

رفع المدير عينيه إليهم ، واتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

- رجال المخابرات الروسية فقدوا أثر (ن - ١) مرة أخرى .

سرت همهمة ارتياح بين الجميع ، قبل أن يهتف أحدهم :

- أعتقد أن سيادة العميد (أدهم) هو الرجل المثالى ؛ لمواجهة أمر كهذا .

استدار إليه الكل ، فتابع فى حماسة :

- من غير (رجل المستحيل) ، يمكنه التعامل مع عملية كبرى كهذه ؟!

انعقد حاجبا المدير بشدة ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ فى مثل هذه الظروف ؟!

ثم عاد يعتدل ، متابعًا فى قلق :

ـ (ن ـ ١) يخوض بالفعل مواجهة عصيبة فى (روسيا) ، وإسناد مهمة كهذه إليه ، فى مثل هذه الظروف ، يضع على كاهله ضغوطًا لا قبل لبشرى بها ، حتى ولو كان (رجل المستحيل) نفسه .

وصمت بضع لحظات أخرى ، بدت فيها أمارات التفكير العميق على وجهه فى وضوح ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ سنقوم بكل ما علينا هنا ، وسنرسل فريقًا من رجالنا ، لتحرّى الأمور فى (روسيا) .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ السؤال الآن هو من ؟! من فعل هذا ؟! من ؟!

* * *

قهقه (بورى) عاليًا فى ظفر واضح ، وهو يلوّح بذراعه ، قائلاً :

ـ رائع .. عظيم .. المرحلة الحاسمة تمت بنجاح .

انعقد حاجبا (زوشا) ، وهى تقول فى غضب :

ـ ولكن متى ؟! إنك لم تشر حتى إلى موعد التنفيذ .

أطلق ضحكة تموج بالانتصار والزهو ، وهو يلوّح بيده فى حركة مسرحية ، قائلاً بمنتهى الغرور :

ـ هذه هى العبقرية يا عزيزتى (زوشا) .. لا أحد يعلم بموعد الضربة الحاسمة .. حتى فرق التنفيذ نفسها ، لم تدرك هدفها إلا عندما فضّ قادتها المظاريف المغلقة ، التى سلمتهم إياها ، قبيل ساعة الصفر بعشرين دقيقة فحسب .

حدّقت فيه باستنكار ، هاتفة :

ـ فرق تنفيذ ، وساعة صفر ، ومظاريف مغلقة ؟! ما الذى نتحدّث عنه بالضبط ؟! حرب ؟!

التمعت عيناه ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد .

ثم هبَّ من مقعده بحركة مباغتة ، مستطردًا بلهجة وحشية مخيفة :

ـ وليست مجرَّد حرب عادية .. إنها حرب عالمية ثالثة ، يقودها رجل واحد ، ضد العالم كله .

هتفت محتدَّة :

ـ هذا جـ .....

بترت كلمتها دفعة واحدة ، قبل أن تغادر شفتيها ، وعلى الرغم من هذا ، فقد استدار إليها بحركة عنيفة ، واشتعلت عيناه غضبًا ، وهو يندفع نحوها فتراجعت صائحة :

ـ إننى لم ..

أمسك ذراعيها القويتين بأصابع كالفولاذ ، انغرست فيهما بقسوة ، وهو يقول :

ـ أيتها الغبية الحمقاء .. الحرب فى زمننا هذا لم تعد حرب أعداد وجيوش ، بل صارت حرب عقول وعبقريات .. القوة لم تعد فى العدد ، وإنما فى العدة ..

ولقد كان من المحتم أن أحيط هذه الخطوة بأكبر قدر ممكن من السرية ؛ لأنها الشرارة التى ستشعل قوتنا كلها .

غمغمت فى ألم :

ـ الشرارة ؟!

قال فى صرامة وحشية قاسية :

ـ نعم .. الشرارة .. فبدون هذا السلاح الرهيب ، لاتكون لنا أية قوة ، وبه نصبح أقوى أقوياء العالم .

قالت ، وهى تحاول التملُّص من أصابعه المؤلمة :

ـ كل الدول لديها أسلحة كيماوية .

برقت عيناه ، وهو يقول :

ـ ومن منهم يجرؤ على استخدامها ؟!

ثم انتزع أصابعه من ذراعيها بغتة ، ليتابع فى شراسة مجنونة :

ـ ما دام الكل يمتلك أسلحة الدمار الشامل ، فلا أحد



أدار يده فى الهواء ، هاتفًا

ـ بالطبع .. ما فائدة القوة ، إن لم يعرف الكل بامتلاكك لها ؟! ..

سيجرؤ على استخدام ما يمتلك ، خشـية رد الفعل .. وهنا سيصبح وضعنا مختلفًا .

سألته فى تردُّد ، وهى تفرك مواضع الألم فـى ذراعيها :

ـ كيف ؟!

برقت عيناه أكثر وأكثر ، وهو يجيب :

ـ نحن سنستخدمها .

نطقها ، ثم انطلق يضحك ويقهقه فى سـعادة ، وكأنما ألقى أفضل نكات القرن ، فى حين حدَّقت فيه هى لحظات ، مغمغمة فى ارتياع :

ـ نستخدمها .

أدار يده فى الهواء ، هاتفًا :

ـ بالطبع .. ما فـائدة القوة ، إن لم يعرف الكل بامتلاكك لها ؟! لهذا جعلت عملية الاستيلاء والاقتحام تتم بمنتهى العنف والقسوة ، وبأكبر ضجة ممكنـة ،

على الرغم من أن ثمانين فى المائة من المخزون كان قد انتقل إلى مخازننا السرية بالفعل ، وسفر إلى مواقع الأهداف المنتظرة ، بفضل حليفنا القوى ، الجنرال (فاسيلوف) .

ازدردت لعابها ، قائلة :

ـ ولكنهم لم يعلنوا الأمر ، ولست أظنهم سيعلنونه .

هزّ كتفيه بلا مبالاة ، وهو يشعل واحدة من سجائره ، ذات الرائحة النفّاذة ، وينفث دخانها فى الهواء ، قائلاً :

ـ فلنعلنه نحن إذن .

سألته فى حذر وقلق :

ـ كيف ؟!

ابتسم ابتسامة كبيرة ، وجلس على مقعده الهزّاز ، وراح يتأرجح به فى بطء ، وينفث دخان سيجارته ، قائلاً :

ـ سنضرب عصفورين بحجر واحد .. سنعلن للشعب الروسى ما أخفته عنه حكومته ، خشية أن تصيبه بالذعر ، ونوجّه رسالة تحذير قاسية إلى خصمنا المصرى ، فى الوقت ذاته .

كرّرت تساؤلها بقلق أكثر :

ـ كيف ؟!

رفع أحد حاجبيه وخفضه ، وهو يشير بيده مجيبًا :

ـ بنفس الأسلوب الذى تعامل معنا به ، وبالوسيلة التى اقترحتها قديمًا .

بلغ قلقها مبلغه ، وهى تتساءل فى خفوت :

ـ أية وسيلة ؟!

نفث دخان سيجارته فى قوة ، ثم راح يداعبه بسبّابته ، قبل أن يلتفت إليها بعينين تتألقان جذلاً ، ليجيب :

ـ القناع .

تطلقها ، ثم عاد يطلق ضحكاته العالية المجلجلة ، على نحو ارتجف معه قلبها بين ضلوعها ، وتضاعف به قلقها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

انهمك (مدحت) رجل المخابرات المصرى ، المسئول عن مكتب المعلومات السرى فى (موسكو) ، فى إعداد البرقية الشفرية التالية ، التى سيتم إرسالها إلى (القاهرة) ، عبر قناة اتصال سرية خاصة مؤمّنة ، على شبكة الإنترنت ، فى حين جلس زميله (سامى) على بعد خطوات منه ، وهو يضع على أذنيه مسماع جهاز الاتصال الخاص ، ليتلقى تقارير المراقبين السريين ، الذين يتابعون كارثة غاز الأعصاب ، لحظة فلحظة ..

وفى توتر شديد ، أشار (سامى) بيده ، قائلاً :

- الشرطة العسكرية والمخابرات الروسية عاجزتان عن معرفة المسئول عن الكارثة ، والجنرال (فاسيلوف) يؤكد أن كمية الغاز المسروقة تكفى لتهديد العالم أجمع بالفناء ..

انعقد حاجبا (مدحت) ، وهو يضيف هذه المعلومات الجديدة إلى البرقية الشفرية ، و ...

وفجأة ، اعتدل (مدحت) ، وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يلتقط مسدسه ، ويهبّ من مقعده بحركة حادة ، جعلت (سامى) يسأله فى قلق :

- ماذا هناك ؟!

رفع (مدحت) سبّابته إلى شفتيه ، يدعوه إلى الصمت ، وهو يهمس :

- لدينا دخيل .

ارتفع حاجبا (سامى) بدهشة ، ورفع السماعة عن أذنيه ، وهو يلتقط مسدسه بدوره ، وينهض من مقعده فى حذر ، هامسًا :

- مستحيل ! جهاز الإنذار الحساس لم ينطلق .

همس (مدحت) ، وهو يتحرك بخفة وسرعة :

- لقد سمعت حركة خافتة فى الردهة .

همس (سامى) بدوره :

- ولكن جهاز الإنذار معقد ، وشديد الحساسية ، ومن المستحيل أن يتجاوزه أى مخلوق ، دون أن ..

رفع (مدحت) سبابته إلى شفتيه مرة أخرى ، هامسًا فى شىء من التوتر :

- إنه هنا .

لم يدر (سامى) كيف أدرك (مدحت) شيئًا كهذا ؛ فقد أرهف سمعه بقدر الإمكان ، إلا أنه لم يسمع شيئًا ، و ...

وفجأة لمح كلاهما ذلك الظل ، الذى تحرك فى الردهة ، فاعتدلا فى تحفز ، وهمّ (مدحت) بقول شىء ما ، عندما ارتفع صوت هادئ حازم ، يقول :

- جليد (موسكو) يذوب عند القطبين .

تسمّر الاثنان ، وتجمدت سبابتاهما على زنادى مسدسيهما ، مع سماعهما تلك العبارة الشفرية الخاصة ، بذلك الصوت المألوف ، الذى بعث فى عروقهما دفئًا خاصًا ، جعل (سامى) يهتف :

- مستحيل !

أما (مدحت) ، فقد اندفع نحو صاحب الصوت ، هاتفًا فى حرارة :

- سيادة العميد ! حمدًا لله على سلامتك .

صافحهما (أدهم) فى هدوء ، وهو يقول :

- كيف حالكما ؟! وكيف تسير الأمور هنا ؟!

هتف (سامى) فى حماسة :

- أفضل ما حدث لنا ، فى الآونة الأخيرة ، هو رؤيتك يا سيادة العميد .

وابتسم (مدحت) ، وهو يشير بمسدسه ، قائلاً :

- هذا يفسّر عدم انطلاق جهاز الإنذار .

أشار إليه (أدهم) ، قائلاً بنفس الهدوء :

ـ ويثبت أنك تتمتّع بموهبة خاصة أيضًا .

كان الإرهاق واضحًا على كل لمحة فى وجهه وجسده ، والخدوش والكدمات التى تملأ جسده ، كما أن الرجلين كانا يعلمان جيّدًا ما واجهه ، خلال الساعات الطويلة الماضية ؛ لذا فقد أشار (مدحت) بيده إلى حجرة النوم ، قائلاً :

ـ أظنك بحاجة إلى قدر من النوم والراحة يا سيادة العميد ؟

أومأ (أدهم) برأسه ، قائلاً فى خفوت :

ـ بالتأكيد .

ابتسم (سامى) ، وهو يقول فى تعاطف :

ـ فليكن .. سنؤمّن لك أقصى قدر ممكن من الراحة والهدوء ، وسنتابع نحن أخبار كارثة غاز الأعصاب ، و ...

استدار إليه (أدهم) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ كارثة ماذا ؟!

بدت الدهشة على وجهى الرجلين ، وكأنما كانا يتوقعان أن يكون (أدهم) على دراية بالأمر ، ثم انتبه (مدحت) أولاً إلى أن الخبر لم يذع رسميًا ، فاندفع يشرح الأمر كله لـ (أدهم) ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إليه فى اهتمام متوتر ، قبل أن يغمغم فى صرامة :

ـ إنها كارثة بحق .

وصمت بضع لحظات مفكرًا ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وبخاصة لو وقع سلاح رهيب كهذا ، فى قبضة شيطان نصف مجنون .

سأله (مدحت) فى حذر قلق :

ـ ألديك فكرة بعينها يا سيادة العميد ؟!

بدا (أدهم) شاردًا بضع لحظات، وكأنما لم يسمعه، ثم لم يلبث أن أدار عينيه إليه، قائلاً:

- بل لدى مشتبه فيه بعينه.

صمت لحظة أخرى، قبل أن يضيف فى حزم:

- شخص لايصلح غيره للقيام بعمل أحمق وحشى كهذا.

هتف (سامى) فى انفعال:

- (يورى إيفانوفيتش).. أليس كذلك ؟!

مطّ (أدهم) شفتيه، دون أن يجيب، فهزّ (ممدوح) رأسه فى قوة، وكأنما يطرد الفكرة الرهيبة من رأسه، قبل أن يقول:

- ستتضاعف الكارثة ألف مرة، لو أن سلاحًا رهيبًا كهذا، قد سقط فى قبضة وحش مجنون مثله.

نقل (أدهم) بصره بين الرجلين، ثم استدار متجهًا إلى حجرة النوم، فسأله (سامى) فى قلق شديد:

- ماذا ستفعل الآن يا سيادة العميد ؟!

أجابه (أدهم) فى حسم:

- سأنام.

ردد (سامى) فى دهشة، توحى بأنه لم يتوقّع هذا الجواب قط:

- تنام ؟!

استدار (أدهم) إليهما، وقال فى صرامة:

- نعم.. أنام، فمن الواضح أن المواجهة المزدوجة، فى المرحلة القادمة، ستحتاج منى إلى اليقظة.. كل اليقظة.

قالها، ودلف إلى حجرة النوم، وأغلق بابها خلفه..

وبمنتهى الحزم.

* * *

٤ـ التحدّى ..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحًا بعد ، عندما انطلق فجأة رنين الهاتف ، المجاور لفراش مذيعة التلفاز الشهيرة (ناديا فيدروفيتش) ، مقدّمة أشهر برنامج تليفزيونى صباحى ، فى (روسيا) كلها ..

وبانزعاج شديد ، هبّت (ناديا) من نومها ، وقفزت تختطف سمّاعة الهاتف ، هاتفة فى حنق :

ـ أيًا كانت هويتك ، أتمنّى أن يكون اتصالك لسبب قهرى ، وإلا ...

قاطعها صوت صارم جاف ، يقول :

ـ أنا الأب الروحى لمنظمة (المافيا) الروسية (*).

(*) الأب الروحى : لقب يستخدم فى المصاوية ، ويطلق على شخص ذى صلة خاصة ، ولقد استخدمته منظمة (المافيا) الإيطالية ، كلقب لزعيم عائلاتها ، ومازالت تستخدمه حتى اليوم .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، واعتدلت جالسة على الفراش ، واحتبست كلماتها فى حلقها بضع لحظات ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ اسمع يا هذا ، لو أنها مزحة ، فهى ..

قاطعها (يورى) مرة أخرى ، فى صرامة شديدة ، حملت رنّة وحشية مخيفة :

ـ اصمتى واستمعى إلىّ جيدًا ، لو أنك ترغبين فى الحصول على سبق صحفى ليس له مثيل .

صمتت بضع لحظات أخرى ، ازدردت خلالها لعابها فى صعوبة ، وهزّت رأسها فى قوة ، وكأنما تنفض عنها أثر النوم ، قبل أن تتمتم بصوت خافت ، التقطته أذناها فى صعوبة شديدة :

ـ كلى آذان مصغية .

كان من الواضح أن محدّثها لاينتظر جوابًا ، فقد تابع ، قبل حتى أن تتمّ عبارتها ، وبنفس الصرامة الوحشية :

- إنهم لم يبلغوك بحادثة سرقة مخـزون غاز الأعصاب .. أليس كذلك ؟!

اتسعت عيناها فى رعب هائل ، وهى تهتف بذهول :

- سرقة ماذا ؟!

تابع متجاهلاً انفعالها تماماً :

- المسئولون يحاولون إخفاء الأمـر عن الشعب ، ولكن هذا خطأ كبير ، فمن حق الشعب أن يعرف كل الحقائق .. أليس كذلك ؟!

نطق الجزء الأخير من عبارته بسخرية عجيبة ، تمتزج بنبرة وحشية مخيفة ، مما جعل جسدها يرتجف وهى تغمغم :

- كيف .. كيف أتأكد من صدق ادعائك هذا ؟!

قال فى شراسة :

- ادعاء ؟! ألا يمكنك استيعاب الحقائق عندما تسمعينها أيتها الغبية .

صدمها هجومه الوقح ، فتراجعت برأسها فى حركة حادة ، وهمت بإغلاق الهاتف فى وجهه ، لولا أن فضولها قد غلب غضبها ، فقالت فى شىء من العصبية :

- أريد دليلاً واحداً .

فوجئت به يقول فى هدوء عجيب :

- هذا حقك .

أدهشها تأرجح انفعالاته الغريب ، وأدركت أنها أمام شخص لايتمتع بالاتزان النفسى ، فازدردت لعابها مرة أخرى ، قبل أن تسيطر على أعصابها ، وتسأله فى اهتمام :

- ألديك الدليل ؟!

أجابها بنفس الهدوء ، وإن تسللت إليه لمحة من الزهو المتغطرس :

- سأمنحك أكثر مما تحلمين به .

غمغمت فى لهفة :

- حقاً ؟!

استعاد صرامته بغتة ، وهو يقول :

- والآن غادرى فراشك ، وافتحى باب منزلك ، وستجدين مندوبتى أمامه ، وهى ستمنحك كل ماتريدين .. بشروطنا .

سألته فى عصبية :

- أية شروط ؟!

أجابها فى صرامة أكثر :

- هى ستخبرك .

قالها ، وأنهى الاتصال دفعة واحدة ، فأبعدت هى سماعة الهاتف عن أذنها ، وتطلعت إليها فى مزيج من الدهشة والحيرة ، وكأنما لاتصدق ماحدث ، ثم لم يلبث فضولها أن انتزعها من فراشها ، ودفعها دفعًا نحو باب منزلها ، وهى تتساءل كيف ستبدو تلك المندوبة ، و ...

وفجأة ، تجمدت فى موقعها ، ووثبت إلى ذهنها فكرة مخيفة ..

ماذا لو أنها خدعة ؟!

ماذا لو أنها محاولة لصوصية لاقتحام وسائل الأمن لمنزلها ؟!

جال الخاطر برأسها ، وأثار العديد من مخاوفها ، إلا أن فضولها الأنثوى ، وطموحها الصحفى انتصرا فى النهاية كالمعتاد ، فغمغمت فى توتر :

- وماذا لو أننى خسرت أكبر سبق ، فى حياتى الإعلامية كلها .

لم تكد تنطقها ، حتى ارتفع رنين جرس الباب بدقة واحدة ، انتفض معها جسدها كله فهتفت فى عصبية :

- فليكن ..

ثم اندفعت نحو الباب ، وفتحته ، دون حتى أن تلقى نظرة عبر عينه السحرية ..

واتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تحدق فى المرأة التى تقف أمامها ..

فالمشهد كان بحق عجيبًا ..

عجيبًا إلى أقصى حد ..

* * *

تحرك (مدحت) بخفة ، وفتح باب حجرة (أدهم) فى حذر ، وألقى نظرة على هذا الأخير ، قبل أن يتراجع ، ويغلق الباب فى هدوء قائلاً لزميله (سامى) :

- مازال نائمًا بعمق .

غمغم (سامى) :

- هذا أفضل له بالتأكيد ، بعد كل ما عاناه ، خلال الساعات الطويلة الماضية ، التى واجه فيها أهوالاً لاقبل لبشرى بها .

على الرغم من خفوت حديثهما ، تسللت كلماتهما إلى أذنى (أدهم) ، وهو يرقد على فراشه مغمض العينين ، فداعبت حواسه ، وأيقظت عقله ، وأفرغت عشرات المشاعر فى عروقه ..

لم يفتح عينيه ، أو ينهض من فراشه ، على الرغم من استيقاظه بالفعل ، بل راح عقله ، الذى استعاد نشاطه منذ لحظات ، يعيد دراسة الموقف كله على ضوء التطورات الأخيرة المفاجئة ..

لقد ربحت (المافيا) الروسية معركتها ، حتى هذه اللحظة ، على الرغم من كل ما جشمها إياه من خسائر ، خلال الساعات القليلة الأخيرة ..

فخطة (يورى) الشيطانية ، وقع كل الرفاق فى قبضته ، وتحولّ الكل ، من رجال الأمن الرسميين ، وقتلة (المافيا) ، إلى (أدهم) ، يطاردونه فى وحشية واستماتة ، ولا هدف لهم سوى الإيقاع به ، والقضاء المبرم عليه ..

وها هى ذى كارثة جديدة ، تحمل أيضًا رائحة وبصمة (يورى إيفانوفيتش) ..

ذلك الشيطان نصف المجنون ، الذى لم ، ولا ، ولن يتورّع عن فعل أى شىء فى الوجود لتحقيق طموحات مخيفة ، وأهداف شيطانية مريدة ..

وهو يعلم أنه يواجه ذلك الشيطان ، بأسلوب شديد الصعوبة والتعقيد ..

وشديد الخطورة أيضًا ..

أسلوب يحتاج إلى منتهى البراعة ، والذكاء ، والدقة ..

والخبث أيضًا ..

فأى خطأ يمكن أن يتسبّب فى ..

« سيادة العميد .. » ..

اندفع (مدحت) ، إلى الحجرة على نحو مباغت عنيف ، وهو يهتف بالعبارة ، فوثب (أدهم) من فراشه ، وتحفّزت كل خلية فى جسده ، وهو يقول :

ـ ماذا هناك ؟!

هتف (مدحت) ، وهو يشير بإبهامه خلف ظهره فى عصبية :

ـ معذرة لاقتحامى الحجرة على هذا النحو ياسيادة العميد ، ولكن من الضرورى أن تتابع هذا .

سأله (أدهم) ، وهو يغادر الحجرة بالفعل :

ـ ماذا حدث ؟!

سار (مدحت) إلى جواره فى توتر ، قائلاً :

ـ (ناديا فيدروفيتش) بدأت برنامجها بأن لديها أخبارًا بالغة الخطورة للشعب ، ورسالة شديدة الأهمية لك ، وستذيع هذا بعد دقائق .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يتجه نحو حجرة المعيشة ، حيث يستقر التلفاز ، الذى جلس أمامه (سامى) فى اهتمام بالغ ، ولكنه لم يكد يلمح (أدهم) ، حتى نهض فى احترام ، قائلاً فى توتر :

ـ ستعلن الأخبار فورًا .

جلس (أدهم) على مقعد مواجه للتلفاز ، وتابع شاشته فى اهتمام ، وهى تحمل وجه (ناديا) بملامحها الجميلة ، وهى تقول :

ـ الأخبار التى سنعلنها هنا لن ترضى المسئولين ، الذين اعتادوا إخفاء الحقائق عن الشعب ، والتعامل معه باعتباره كومة من الكائنات غير الرشيدة ، التى تحتاج إلى من يتولّى شئونها .



جلس « أدهم » على مقعد مواجه للتلفاز ، وتابع شاشته فى اهتمام ، وهى تحمل وجه (ناديا) بملامحها الجميلة ..

غمغم (مدحت) :

ـ رباه ! ترى هل ..

قبل أن يتمّ عبارتـه ، مـالت (ناديا) إلى الأمـام ، وقالت فى حزم :

ـ أمس ، حدثت كارثة مروِّعة .. لقد تمت سرقة مخزون غاز الأعصاب القاتل بالكامل ، مـن أكـبر مخازنه العسكرية ، بعملية مسلَّحة عنيفة ، ولم تعلن أية جهة بعد مسئوليتها عن الحادث .

ازداد انعقاد حاجبى (أدهم) ، وهو يسأل (سامى) :

ـ هل تقومون بتسجيل هذا ؟!

أجابه (سامى) فى انفعال :

ـ بالتأكيد .

كانت (ناديا) تتابع فى ثقة :

ـ المسئولون أخفوا الخبر ، خشية إصابة الشعب ، وشعوب العالم الأخرى بالفزع ، من سقوط سلاح رهيب

كهذا فى قبضة مجهولين ، لا أحد يعلم نواياهم بالضبط .. ومن المؤكد أنهم الآن يتميزون غضبًا وغيظًا ، وسيبادرون بتكذيب الخبر فورًا ، وربما بعقابى أيضًا ، بتهمة ترويج شائعات كاذبة .

ثم اتسعت ابتسامتها الواثقة ، وتراجعت فى مقعدها ، وهى تضيف :

- لذا ، كان من المحتم أن نذيع هذا الفيلم أيضًا .

مع آخر حروف كلماتها ، بدأت الشاشة فى عرض فيلم مذهل ..

فيلم تم تصويره بوساطة مجهول ، لعملية اقتحام وسرقة مخزن غاز الأعصاب العسكرى ، باستثناء الجزء الخاص بنقل أسطوانات الغاز نفسها ..

وفى دهشة عارمة ، تمتم (سامى) :

- كيف أمكنهم تصوير فيلم كهذا ؟!

هتف (مدحت) :

- بل السؤال هو كيف تركتهم السلطات يذيعون هذا الفيلم ، دون التدخل لإيقاف عرضه بالقوة ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

- (ناديا) لن تترك لهم الفرصة لهذا .. أراهن أنها قد انتقت آخر قاعة تصوير وبث يمكنهم التفكير فيها ، بحيث تؤدى فقرتها كاملة ، قبل أن يتدخلوا لمنع البث أو إيقافه .

قال (سامى) فى انفعال :

- يمكنهم إيقاف البث من مبنى التلفاز الرئيسى .

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

- ستنتهى فقرتها ، قبل أن يفعلوا .

غمغم (مدحت) :

- ثم إن إيقاف البث سيصبح أكثر سوءًا ، بعد عرض هذا الفيلم بالفعل ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، عاد وجه (ناديا) إلى الشاشة ، وهى تقول :

- والآن ، وبعد أن علمتم الحقائق ، دعونى أذكركم بلقائى السابق ، مع ذلك المصرى ، الذى تبحث عنه (روسيا) كلها .. فلقاء اليوم يعدّ امتدادًا لذلك اللقاء السابق .. فقط لاتدعوا مظهر ضيفتنا يقلقكم أو يربككم .. استمعوا إليها فحسب ، وشاهدوا ما ستعرضه عليكم .

مع نهاية حديثها ، انتقلت الكاميرا إلى المقعد المجاور ، و ...

واتسعت عينا (مدحت) و(سامى) فى دهشة ..

ومن المؤكد أن عيون كل المشاهدين قد شاركتهم هذا ، فيما عدا (أدهم) ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إلى (زوشا) ، بجسدها القوى وعضلاتها المفتولة ، وهى تجلس على مقعدها ، وعلى وجهها قناع عجيب ..

قناع بألوان العلم الروسى الجديد ، يمنحها هيئة أقرب إلى الهزل ، على الرغم من صوتها الجاف القاسى ، وهى تقول :

- رسالتنا لذلك المصرى بسيطة ومختصرة ؛ فكل ما نريد قوله هو أنه يفرط فى النشاط ، على نحو مزعج للغاية ، على الرغم من أن حادثة سرقة غاز الأعصاب الأخيرة قد تصنع فارقًا مدهشًا .

ثم أشارت بيدها ، مضيفة :

- كهذا .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى بدأ فجأة عرض فيلم آخر ..

فيلم لم تكد شاشة التلفاز تبثه ، حتى التقى حاجبا (أدهم) فى شدة ، حتى كاد يمتزجا ، وانقبضت أصابعه على مسندى مقعده ، حتى كادت تمزّقهما ، فى حين حملت نظراته غضبًا بلا حدود ..

أما (مدحت) و(سامى) ، فقد هتف الأول فى ارتياع :

- يا إلهى !

وأما الثانى ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وغمغم فى ذهول مذعور :

- مستحيل !

فالفيلم الذى تم عرضه ، كان لعربة القطار ، التى احتشد فيها كل رفاق (أدهم) ، والغاز يسقطهم واحدًا بعد الآخر ..

شقيقه الدكتور (أحمد) ..

ثم (ريهام) ..

و(منى) ..

و(شريف) ..

وأخيرًا (قدرى) ..

ومع سقوطه ، وتوقُّف حركة الجميع ، انتهى عرض الفيلم فجأة ، وعادت الشاشة تحمل وجه (زوشا) ، وهى تبتسم فى سخرية وحشية متشفية ، قائلة :

ـ مشهد مؤسف .. أليس كذلك ؟! ولكن المؤسف أكثر أن ..

قبل أن تتم عبارتها ، انقطع الإرسال فجأة ، فهتف (مدحت) فى حنق :

ـ لقد أوقفوا البث .

وقال (سامى) فى غضب :

ـ هذا ما كنت أخشاه .

أما (أدهم) ، فلم ينبس ببنت شفة ..

ففى أعماقه ، كان الغضب قد تصاعد ، حتى بلغ أقصى ما بلغه ، فى حياته كلها ..

غضب هادر ، عارم ، عاصف ، عنيف ..

غضب كان يعنى أن المرحلة القادمة من الصراع ستختلف ..

ستختلف كثيرًا ..

حتمًا ..

* * *

« إنها مهزلة .. » ..

هتف مدير المخابرات الروسى بالعبارة ، فى غضب

هادر ، فى وجه (ناديا) ، التى شعرت ، لأوّل مرة فى حياتها ، بخوف حقيقى ، وهى تغمغم :

- كان سبقًا إعلاميًا ، و ..

صرخ الرجل ، بكل غضب الدنيا :

- سبق ؟! هل تسمين عملية إثارة أكبر حالة فزع وذعر جماعى فى التاريخ سبقًا إعلاميًا ؟! ألا تدركين ما فعلته ، ليس فى شعبنا الروسى فحسب ، ولكن فى شعوب العالم أجمع ؟! لقد أعلنت عن وقوع سلاح قاتل رهيب ، فى قبضة جهة مجهولة ، ترتدى متحدثتها الرسمية قناعًا سخيفًا ، وجعلت كل شعوب الأرض مذعورة ، من احتمال استخدام تلك الغازات السامة ضدها .. هل تدركين كم ستتجشم ، وستتجشم حكومات العالم ، لتكذيب ونفى ما أذعت ؟!

حاولت أن تستجمع شجاعتها ، وهى تقول :

- ولكنه حقيقة .

صاح فى وجهها بغضب أكثر :

- ومن أدراك ؟!

ازدردت لعابها فى صعوبة ، وهى تغمغم :

- ذلك الفيلم .

صاح فى ثورة :

- فيلم ؟! مجرّد فيلم ، يمكن أن تصنع ستوديوهات (هوليود) ما هو أفضل منه ، يكفى لإقناعك بإثارة أكبر موجة فزع عالمية فى التاريخ ؟!

امتلأت نفسها بالتوتر والخوف ، وأدركت لأوّل مرة فداحة ما أقدمت عليه ، ومدى خطورة نتائجه ، التى يمكن أن تفوق أية كارثة معروفة ، إلا أن عنادها جعلها تقول فى إصرار عصبى :

- إنه حقيقى .

تراجع مدير المخابرات ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى وجهها ، ثم لم يلبث أن أولاها ظهره ، واتجه نحو نافذة حجرة مكتبه ، وتطلع عبرها لحظة ، قبل أن يقول فى صرامة ، ودون أن يلتفت إليها :

- نعم .. إنه حقيقى .

بدا ذلك أشبه بانسكاب ماء بارد على قطعة من الحديد الساخن ، فوثبت (ناديا) من مكانها ، هاتفة :

ـ رأيت ؟!

استدار إليها فى بطء ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ ولكن العالم كله سيوقن من أنه ليس كذلك ؟!

هتفت بعناد :

ـ مستحيل !

اشتعلت عيناه بغضب مكتوم ، لم ينتقل إلى صوته ، وهو يقول :

ـ لايوجد مستحيل فى عالمنا .. كل شىء يمكن فعله ومادامت لدينا الإمكانيات والمعلومات اللازمة .

انخفضت ثقتها ، وهى تكرر :

ـ مستحيل !

تابع وكأنه لم يسمعها :

ـ ففى هذه اللحظة بالتحديد ، يعمل أكثر من ألف شخص ، لإعادة مخزن الغازات السامة العسكرى إلى ما كان عليه .. نفس المخزن الذى شاهده الكل ، فى ذلك الفيلم الذى أثرت به ذعر العالم أجمع .. إمكانيات هائلة ، تم حشدها لترميم المكان ، ونقل كمية هائلة من الأسطوانات الفارغة إليه .. بل واختيار شبهاء لكل شخص لقى مصرعه فى فيلمك ، بحيث تبدو الصورة أنيقة تمامًا ، مع صباح الغد .

هزّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ إنه ليس فيلمى .

مرة أخرى ، تابع وكأنه لم يسمعها :

ـ الرئيس سيلقى بيانًا بعد دقائق .. تتم إذاعته على كل القنوات ، الأرضية والفضائية ، ينفى فيه الأمر تمامًا ، ويدعو فيه الصحفيين ، من كل أنحاء العالم ، لزيارة ذلك المخزن العسكرى فى صباح الغد ، حيث سيستقبلهم الجنرال (فاسيلوف) بنفسه ، ليعرض عليهم المكان ، الذى سيزيل الخبراء منه كل أثر للهجوم ، بدقة لايمكن كشف أمرها ، خلال الساعات التالية .

حدقت فى وجهه بشىء من الذعر ، وهى تقول :

ـ لماذا تخبرنى بهذا ؟!

للمرة الثالثة ، تجاهلها تمامًا ، مستطردًا :

ـ ولإثبات زيف ما تم عرضه ، سيتم اتهامك رسميًا بالتعاون مع منظمة إرهابية دولية ، تسعى لإثارة الرعب والفزع عالميًا ، و ...

تراجعت ، صارخة :

ـ أيها الأوغاد .

ومع تراجعها ، سقطت فى قبضة حارسين قويين ، كبلا ذراعيها فى قسوة وعنف ، ومدير المخابرات الروسى يبتسم ابتسامة متشفية ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب ، وهو يضيف :

ـ وبالطبع ستكون هناك أدلة مادية ، وقرائن ، ووثائق ، وصور أيضًا ، فخبراؤنا قادرون على فعل المعجزات التكنولوجية المبهرة ، والمقنعة أيضًا ، فى هذا المضمار .

صرخت ، وهى تقاوم الحارسين فى استماتة :

ـ ليس هذا من حقكم .. أين الحرية والديمقراطية ، اللذين تنادون بهما ، فى العهد الحديث .

أدار ظهره لها ، وهو يواصل فى صرامة :

ـ وحتى تحين لحظة محاكمتك ، بعد عام أو يزيد ، سيتم اعتقالك ، ونقلك إلى ذلك المعتقل القديم ، الذى لم يتم إغلاقه أبدًا ، على عكس ما تداولته الدعاية الرسمية والحكومية .

ومال برأسه إليها ، وتسللت إلى شفتيه ابتسامة أكثر تشفيًا ، وهو يكمل فى قوة :

ـ معتقل (سيبيريا) .

امتقع وجهها بشدة ، واتسعت عيناها برعب لامثيل له ، وهى تهتف :

ـ لا .. ليس (سيبيريا) .. ليس ذلك الجحيم الثلجى .. لا .

أشار مدير المخابرات الروسى بيده ، قائلاً لحارسيه فى صرامة شرسة :

ـ أرسلاها على الفور .

صرخت ، وهما يجذبانها فى غلظة :

ـ لا .. ليس (سيبيريا) .. أيها الأوغاد .. أيها الحقراء .. أيها ال ..

بترت عبارتها ، مع الضربة العنيفة ، التى هوت على مؤخرة رأسها ، واتسعت عيناها لحظة ، فى ذعر وارتياع ، ثم لم تلبث أن هوت فاقدة الوعى ، بين ذراعى الحارسين الضخمين ، اللذين يحملانها إلى مصير بشع ، يجعلها أول القائمة ..

قائمة الضحايا ..

ضحايا الشيطان ..

الروسى ..

* * *

أطلق (يورى) ضحكة عالية ، وهو ينفث دخان سيجارته الكثيف ، ويطالع للمرة الثالثة ، تسجيلاً لما قدّمته (زوشا) بقناعها السخيف ، فى برنامج (صباح جديد) ، فانعقد حاجبا تلك الأخيرة ، وهى تقول فى حنق :

ـ إنه أسخف شىء قمت به فى حياتى .

واصل ضحكاته المنتشية ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ المهم أنه قد حقق الغرض منه .

قالت فى حدة :

ـ أكان من الضرورى أن أبدو حمقاء ، ليتحقق هذا الغرض ؟!

تلاشت ضحكته ، واستعاد صوته قسوته الصارمة وهو يجيب :

ـ هذا جذب الانتباه على نحو أفضل .

ثم عاد يضحك ، مضيفاً :

- وإيقاف البث جاء فى توقيت مناسب تمامًا ؛ ليصيب خصمنا المصرى بالجنون .

تطلّعت إليه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن تسأله فى توتر :

- لقد تعمّدت إثارة أعصابه .. أليس كذلك ؟!

تراجع فى مقعده ، ونفث آخر أنفاس سيجارته فى قوة ، قبل أن تلتمع عيناه ، وهو يلقيها بعيدًا ، قائلاً :

- كل ما أفعله متعمّد يا عزيزتى .

سألته فى دهشة :

- ولكن لماذا ؟! أنت بنفسك قلت : إن هذا سيحيله إلى وحش كاسر !!

تراجع فى مقعده أكثر ، وأشعل سيجارة جديدة ، نفث دخانها ذا الرائحة النفّاذة ببطء شديد ، قبل أن يقول ببطء أكثر :

- كان من الضرورى أن نعرف حدود ذلك الوحش .

قالت فى انزعاج :

- وماذا لو ؟!

قاطعها مستطردًا فى صرامة :

- لاثنتى عشرة ساعة فحسب .

قالت فى توتر حذر :

- وماذا لو أفلت منا الزمام ؟!

استدار إليها بحركة حادة ، جعلتها تستدرك فى ارتباك :

- مجرّد احتمال .

رمقها بنظرة نارية ، وهو ينفث دخان سيجارته فى وجهها ، فسعلت فى عصبية ، وهو يقول فى صرامة شرسة :

- مهمتنا ألا نسمح بحدوث هذا أبدًا .

ثم عاد يتراجع فى مقعده ، متابعًا بشراسة أكثر :

- وهذا يحتاج إلى تخطيط دقيق .. دقيق للغاية !

نطقها ، وغرق فى تفكير عميق ، وهو ينفث دخان سيجارته ، ذا الرائحة النفاذة بقوة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

انهارت (ناديا فيدروفيتش) تمامًا ، داخل تلك السيارة ، التى تنقلها إلى المطار الخاص بالمخابرات الروسية ، حيث تنتظرها طائرة خاصة ، تتأهب لحملها إلى جحيم ثلجى ، كانت ومازالت ترتجف لذكر اسمه القلوب ..

معتقل (سيبيريا) ..

وبكل حرارة انفعالها ، وشدة ذعرها ، راحت تبكى وتنتحب ، ودموعها تغرق وجهها فى غزارة ..

مستحيل !

مستحيل أن تكون هذه نهايتها ، بعد حياة حافلة بالنجاحات والتفوق !!

مستحيل !

مستحيل !

لقد كانت طموحاتها متألقة ، وتمتد إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه المرء ..

كانت تسعى لأن تصبح رئيسة القناة التليفزيونية ، التى تعمل بها ..

بل رئيسة المحطة كلها ..

وعندما التقطت ذلك السبق ، وخططت لبثه ، على الرغم من أنف الجميع ، كانت تتصور أن هذا سيقفز بنجاحها ألف خطوة إلى الأمام ، وأن سبقها سيجعلها أشهر مذيعة تليفزيونية عرفها التاريخ ..

ولكن من الواضح أنها لم تحسن تقدير الأمور ..

لقد كان سبقها الإعلامى كارثة على مصيرها ومستقبلها ..

كارثة طاحنة ..

وتفجّرت دموعها أكثر وأكثر ، وتعالى نحيبها ، فالتفت إليها أحد الحارسين الضخمين القويين ، اللذين يحيطان بها ، وقال فى خشونة :

- كفى .

حاولت أن تكتم نحيبها ، إلا أن إحساسها بالرعب والضياع كان أكبر منها ، فدفنت وجهها بين كفيها ، وكتمت نحيبها بينهما ، فى حين غمغم السائق فى سخرية :

- المشهد نفسه يتكرّر فى كل مرة .. الكل يصدّق أحاديث الحرية والديمقراطية ، ثم ينهار عندما يواجه الحقيقة .

زمجر الحارس الأكثر ضخامة ، الجالس إلى جواره ، وهو يقول فى خشونة :

- اصمت ، وقد السيارة فحسب .

مطّ السائق شفتيه ، مغمغمًا :

- فليكن .. نسيت لحظة أن سياسة تكميم الأفواه تسرى على الجميع .

كرّر الحارس بغلظة أكثر :

- اصمت .

عقد السائق حاجبيه ، وأدار عجلة القيادة ، لينحرف من الطريق الرئيسى ، خارج (موسكو) ، إلى طريق فرعى خاص ، يقود إلى مطار المخابرات الروسية ، وتمتدّ على جانبيه الأشجار الضخمة ، التى يكسو الجليد قممها ، و ...

وفجأة ، سمع الجميع تلك الخبطة المكتومة ، على سقف السيارة ، فتحفز الحرّاس الثلاثة ، وهتف السائق فى توتر :

- ما هذا بالضبط ؟!

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، رفع الحراس الثلاثة مدافعهم الآلية بحركة حادة متوترة ، جعلت (ناديا) تطلق شهقة فزع ، وهى تتساءل فى أعماقها عما يمكن أن يعنيه هذا ..

وفى توتر أكثر ، تابع السائق :

هل ينبغى أن أتوقف ؟!

زمجر الحارس المجاور له ، وهو يقول فى شراسة :

ـ كلاً .. واصل طريقك ، حتى نبلغ حرم المطار ، حيث مواقع الحراسة الحصينة ، و ...

وفجأة ، انقض الإعصار ..

إعصار اسمه (أدهم صبرى) ، اندفع بغتة عبر زجاج النافذة الخلفى ، وحطَّمه فى عنف ، جعل (ناديا) تطلق صرخة رعب هائلة ، وهى تخفى وجهها بذراعيها ، وتنكمش فى المقعد ، وهى تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

ومن حولها ، ودون أن تفتح عينيها ، سمعت صوت شهقات قوية ، ولطمات ولكمات عنيفة ، وشعرت باختلال توازن السيارة ، وسائقها يهتف فى رعب :

ـ لا .. أنا لم أفعل شيئًا .. إننى مجرَّد ..

لطمة جديدة أخرسته ، مع انحراف عنيف فى مسار السيارة ، قبل أن تستعيد توازنها دفعة واحدة ، وتتوقَّف إلى جانب الطريق ..

ولكن (ناديا) لم تتوقَّف عن الصراخ ، وقد انهارت مشاعرها وانفعالاتها كلها دفعة واحدة ، ففقدت السيطرة على نفسها تمامًا ، و ...

« اهدئى .. إنه أنا .. » ..

تسلَّل الصوت عبر أذنيها ، هادئًا ، حازمًا ، مألوفًا ، قويًا ، فاحتبست صرخاتها فى حلقها ، وأبعدت يديها عن وجهها ، واستدارت تحدِّق فى وجه (أدهم) ، وفى ذلك المشهد الرهيب المحيط بها ..

كان الحراس الثلاثة ضخام الجثة فاقدى الوعى ، من حولها ، وقد تحطَّمت أنوفهم وأسنانهم ، وكأنما هوت على وجوههم مطارق عملاقة من الصلب ، فى حين كان السائق ملقى على عجلة القيادة ، وذراعاه بين قدميه ، على نحو مضحك ..



فوجئت به يقاطعها بغتة .. بوضع سبابته على شفتيها ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ..

أما (أدهم) نفسه ، فقد كان يبدو هادئاً ، وكأنما لاصلة له بكل ما يحيط بهما ..

وفى ذهول ، حدّقت فى وجهه ، قائلة :

- ولكن كيف ؟! كيف فعلت هذا ؟!

تجاهل سؤالها تماماً ، وهو يسألها فى حزم :

- ماذا قالت تلك المقنّعة ، بعد إيقاف البث ؟! ما هو المؤسف أكثر ، الذى تحدّثت عنه ؟!

حدّقت فى وجهه ، وكأنما لم تستوعب سؤاله ، وغمغمت فى دهشة مرتبكة :

- المؤسف أكثر ؟!

ثم ، وكأنها استوعبت الأمر بغتة ، هتفت :

- آه .. هل تقصد هذا ؟! لقد كانت ..

فوجئت به يقاطعها بغتة ، بوضع سبّابته على شفتيها ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، فهمست فى توتر :

- كنت أظنك متلهفاً لـ ..

قاطعها فى صرامة هامسة ، وهو يتلفّت حوله :

ـ اصمتى .

ثم أضاف فى توتر :

ـ لقد كانوا يتوقعون هذا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أليكس) ، أحد رجال (يورى) ، يقول لهذا الأخير ، عبر هاتفه النقّال الخاص :

ـ مدهش .. لقد كنت على حق أيها الزعيم .. لقد هاجم المصرى بالفعل تلك السيارة ، التى تنقل منبعة التلفاز .. بالشيطان ! كيف توقّعت هذا ؟!

تألّقت عينا (يورى) ، وهو ينهى الاتصال ، وتراجع فى مقعده بفخر ظافر ، ونفث دخان سيجارته فى قوة ، وهو يقول :

ـ لابد أن يتضاعف ذكاؤك ألف مرة ، حتى يمكنك أن تستوعب هذا يا (أليكس) .

غمغمت (زوشا) فى انبهار :

ـ هل فعلها ؟!

تجاهلها (يورى) تمامًا ، وهو يعتدل فى مقعده بغتة ، متسائلاً فى صرامة :

ـ هل الجميع فى مواقعهم ؟! هل تسيطرون على الموقف تمامًا ؟!

أجابه (أليكس) فى حماسة :

ـ بالتأكيد .

عاد (يورى) يتراجع فى مقعده ، وينفث دخان سيجارته فى استمتاع عجيب لبضع ثوان ، قبل أن تشتعل عيناه بوحشية عجيبة ، وهو يقول :

ـ لا أريده حيًا يا (أليكس) .

قال (أليكس) فى جذل وحشى :

ـ بالتأكيد أيها الزعيم .. بالتأكيد .

وأنهى الاتصال ، وهو يشير إلى رجاله ، قائلاً فى صرامة :

ـ اهجموا .

وفى لحظة واحدة ، ومن كل صوب ، انقضت دستة من قتلة (المافيا) الروسية على السيارة ..

وفى آن واحد ، انطلقت رصاصاتهم نحوها .. كالمطر ..





٥ ـ المصيدة ..

تنهّد مدير المخابرات العامة المصرية فى عمق ، وهو يتراجع فى مقعده ، فى حجرة الاجتماعات الرئيسية بالمبنى ، ويدير عينيه فى وجوه المجتمعين ، قبل أن يقول فى حزم ، لايخلو من الارتياح :

ـ جنازة الشهيد (علاء) كانت مهيبة بحق .

وافقه الرجال بإيماءات صامتة من رءوسهم ، ثم قال أحدهم فى خفوت :

ـ العجيب أن مئات المواطنين قد انضموا إليها ، على الرغم من جهلهم بصاحبها ، لمجرّد أن الجنود ، فى مقدّمة الجنازة ، كانوا يحملون ما ناله من أوسمة ونياشين بطولة ، مع عبارة تقول : إنه شهيد .

التقط المدير نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ هذه هى (مصر) يارجال .

قالها ، فسرت بينهم همهمة تأييد ، قاطعها وهو يضيف فى حزم :

ـ دعونا الآن نراجع آخر تطورات الموقف فى (موسكو) .

تساءل أحدهم :

ـ أيهما ؟! موقف سيادة العميد (أدهم) أم قضية الغازات القاتلة ؟!

أشار المدير بسبابته ، مجيبًا :

ـ يبدو أن الأمرين يرتبطان ببعضهما ، على نحو ما .

ثم التقط صورة من ملف أمامه ، وهو يتابع :

ـ لقد أرسل لنا مراقبونا فى (موسكو) ، عبر شبكة الإنترنت السرية الخاصة ، تسجيلاً لتلك الفقرة ، التى أثارت رعب الدنيا كلها ، والتى بثها تليفزيون (روسيا) ، عبر برنامج (صباح جديد) .. ولقد سلمت الأمر كله للخبراء فور وروده ، وبدورهم ، بدءوا عملية فحص

وتحليل بالغة الدقة ، لتحديد هوية تلك المقنَّعة ، التى تعبر همزة الوصل ، بين الإعلام ، وتلك الجهة المسئولة عن سرقة غاز الأعصاب .

تساءل أحد الرجال :

ـ وهل توصل الخبراء إلى رأى محدود ؟!

هزَّ المدير رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس إلى أية أدلة مادية .

ثم التقط نفسًا عميقًا آخر ، وهو يتراجع فى مقعده ، مضيفًا فى حزم :

ـ ولكن لديهم نظرية خاصة .

أرهف الكل آذانهم فى اهتمام بالغ ، فتابع المدير :

ـ ففى (روسيا) كلها ، لاتوجد سوى ثلاث جهات ، يمكنها تخطيط وتنفيذ عملية كهذه .. الجيش الروسى ، والمخابرات الروسية ، و ...

صمت لحظة ، وهو يدير بصره فى الرجال ، فأضاف أحدهم فى حزم :

- و (المافيا) الروسية .

أشار المدير بسبابته ، قائلاً فى صرامة :

- بالضبط .

ثم عاد يميل إلى الأمام ، متابعًا :

- ولأن أجهزتنا ، وكل الأجهزة الصديقة ، لم تسجّل أية لمحة توحى بالتمرُّد ، فى صفوف الجيش الروسى ، أو المخابرات الروسية ، خلال الفترة الماضية ، فهذا يعنى أنه لايوجد سوى مشتبه فيه واحد .

تساءل أحد الرجال ، فى حيرة قلقة :

- ولكن لماذا تخاطر (المافيا) الروسية بمعاداة العالم كله ، بالإقدام على خطوة رهيبة كهذه ؟!

أجاب المدير فى حزم :

- القوة .. من يمتلك سلاحًا كهذا ، يمكنه أن يؤثّر فى مجرى الأحداث فى العالم كله .

قال آخر :

- وهل تقول معلوماتنا إن (المافيا) الروسية من القوة ، بحيث يمكنها أداء مثل هذا العمل ؟!

أجابه أحد زملائه :

- نجاحها فى القيام به ، يعنى قدرتها على هذا .

تدخّل ثالث ، قائلاً :

- لا بد من وجود معاونة داخلية .

أومأ المدير برأسه موافقًا ، وقال :

- هذا ما أجمع عليه الخبراء .

اعتدل أحدهم ، وبدا صوته مفعمًا بالانفعال والاهتمام ، وهو يقول :

- أعتقد أنه هناك طرف رابع ، لم يوضع فى الاعتبار .

عبارته جعلت الصمت يسود المكان بغتة ، والعيون كلها تلتفت إليه ، فتابع فى حزم :

- مستر (X) .

على الرغم من أن الصمت قد واصل سيطرته على المكان ، إلا أن عبارته بدت أشبه بقنبلة ، حفرت ملامحها على وجوه الكل بلا استثناء ..

وفى بطء شديد ، تراجع المدير فى مقعده ، والتقى حاجباه إلى أقصى حد ، وعربد فى رأسه سؤال مخيف ..

ترى هل يوجد ما يربط بين (المافيا) الروسية ، وذلك الدموى الغامض مستر (X) ؟!

هل ؟!

ولقد بدا الجواب لحظتها مخيفاً ..

مخيفاً ..

مخيفاً ..

إلى أقصى حد ..

* * *

نقل مدير المخابرات الروسية نظره فى غضب ، بين (كواليسكى) و(سيرجى كوربوف) ، قبل أن يقول فى حدة صارمة :

- هل لى أن أفهم أى عبث تقومان به ، فى مثل هذه الظروف ؟!

اندفع (كواليسكى) يقول فى غضب :

- الكولونيل (كوربوف) يصرّ على التدخل فيما لايعنيه ، وعلى دس أنفه فى أمور تتجاوز صلاحياته ، وتحدى من يفوقونه رتبة ، على نحو يستحق معه محاكمة عسكرية صارمة .

بدا (سيرجى) بارداً كالثلج ، وهو يعقّب ، قائلاً :

- والجنرال (كواليسكى) يتعامل مع الأمر بحدة تفوق المألوف ، وكأن المعركة تخصه شخصيًا ، أو تخص أناسًا يهمهم أمره .

نطق عبارته الأخيرة ، وهو يرمق (كواليسكى) بنظرة خاصة ، جعلت هذا الأخير يصرخ فى ثورة :

- ماذا يعنى ؟! ماذا يعنى بعبارته هذه ؟! إننى أفعل هذا من أجل واجبى .. الواجب الذى ينبغى أن نبذل حياتنا نفسها من أجله ، لو اقتضى الأمر .

على الرغم من برود (سيرجى) الأسطورى ، حمل صوته رنة ساخرة ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! كنت أظن أننى الشخص الذى واجه محاولة الاغتيال ، والذى ينبغى أن يحمل هذه العصبية الزائدة ، وهو يطارد من يظن أنهم من همُّوا بقتله !

احتقن وجه (كواليسكى) فى شدة ، وهم بالصراخ فى وجه (سيرجى) ، لولا أن سأل مدير المخابرات هذا الأخير بغتة :

ـ ألا تصدق أن (أدهم) وفريقه هم من حاول اغتيالك ؟!

شدَّ (سيرجى) قامته ، وهو يجيب فى صرامة قاسية :

ـ مستحيل !

وتألقت عيناه فى غضب مكتوم ، مع استطرادته :

ـ ليست لدى ذرة واحدة من الشك ، فى أن من حاول اغتيالى شخص مختلف .. مختلف تمامًا .

ازداد وجه (كواليسكى) احتقانًا ، فى حين تساءل المدير ، فى اهتمام أكثر :

ـ مثل من ؟!

أدار (سيرجى) عينيه فى بطء ، ليلقى نظرة طويلة على (كواليسكى) ، الذى امتقع وجهه على نحو عجيب ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وعيناه تحدقان فى عينى خصمه ، اللتين حملتا مزيجًا عجيبًا من المقت ، والصرامة ، والغضب ، والوعيد ، قبل أن تدورا مرة أخرى إلى مدير المخابرات ، وشفتاه تقولان فى برود :

ـ شخص لست أملك من الأدلة ، ما يكفى لإدانته بعد .

عاد المدير ينقل بصره بينهما فى صمت ، قبل أن يملأ صدره بالهواء ، قائلاً فى صرامة :

ـ هذا يكفى .

ثم راح يتحرك فى حجرته بتوتر ، مستطردًا :

ـ سآمر بإجراء تحقيق شامل فى الأمر .. تحقيق يشمل كل الجوانب بلا استثناء ، منذ لحظة الهجوم على مستشفى قاعدة الفضاء ، وحتى هذه اللحظة .

قال (كواليسكى) فى عصبية :

ـ سيِّدى .. إننا نضيع الوقت فى ..

قاطعه المدير ، وهو يتوقَّف بغتة فى حدة :

ـ هذا أفضل من إضاعة سمعتنا وهيبتنا ياجنرال .

كانت عيناه تحملان تحديًا غاضبًا ، التقطته عينا (كواليسكى) فى وضوح ، فتراجع مغمغمًا :

ـ بالتأكيد ياسيِّدى .. بالتأكيد .

أشار إليهما المدير بيده ، قائلاً فى صرامة :

ـ والآن انصرفا ؛ فأمامنا عمل ومشكلات بلا حدود .. أنت ياكولونيل (سيرجى) عد إلى المستشفى ؛ فلقد أجمع الأطباء على أن حالتك الصحية لاتسمح بما تفعله ، أما أنت يا جنرال ، فقم بتشكيل فريق خاص ؛ للبحث عن المسؤلين عن سرقة غاز الأعصاب .

قال (سيرجى) فى صرامة :

ـ سيِّدى .. أظن أنه من الأفضل أن أتولى أنا هذه المهمة .

أدار المدير عينيه إليه ، على نحو أكثر حدة ، فى حين قال (كواليسكى) فى مقت :

ـ هل أصابك الحادث بضعف سمعى أيضًا ، أم ماذا يا كولونيل ؟!

ألم تسمع المدير يأمرك بالعودة إلى المستشفى ، بناء على أوامر الأطباء ؟!

تجاهله (سيرجى) تمامًا ، وهو يقول للمدير :

ـ سيِّدى .. دعنى أتولَّى هذه المهمة .. فليذهب الأطباء إلى الجحيم .. إننى أشعر بأننى على مايرام .

انعقد حاجبا المدير بشدة ، وهو يتطلَّع إليه ، فقال (كواليسكى) فى عصبية :

ـ عجبًا !هل أصابك الصمم أم ..

قاطعه المدير فى صرامة شديدة ، وهو يقول :

ـ لا بأس .

التفت إليه (كوالسكى) بدهشة غاضبة ، هاتفًا :

ـ سيدى .. إننى ..

قاطعه المدير مرة أخرى ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ هيا .. لا تضع وقتك يا جنرال .. اذهب لتكمل سعيك خلف ذلك المصرى ، وسيتولى الكولونيل (كوربوف) عملية غاز الأعصاب .

هتف (كوالسكى) معترضًا فى غضب :

ـ ولكن ..

قاطعه المدير للمرة الثالثة ، وقد تضاعفت شدة صرامته :

ـ الوقت من ذهب يا جنرال .

التقى حاجبا (كوالسكى) فى شدة ، واشتعلت عيناه بكل غضب الدنيا ، وهو يرمق (سيرجى) بنظرة تفيض

بالمقت والكراهية ، قبل أن يقول ، وهو يعض شفته السفلى ، حتى يكاد يدميها :

ـ بالتأكيد .

اتجه نحو الباب فى عصبية ، وهو يشير لـ(سيرجى) للحاق به ، ولكن المدير قال فى صرامة :

ـ سيبقى الكولونيل (كوربوف) معى .. لدى ما أناقشه معه .. بشأن عملية غاز الأعصاب بالطبع .

نقل (كوالسكى) بصره بينهما لحظات ، فى توتر بالغ ، قبل أن يغمغم :

ـ فليكن .

نطقها ، وغادر الحجرة ، وأغلق بابها خلفه فى عصبية ، ثم اتجه مباشرة إلى حجرة مكتبه ، وألقى جسده على مقعده ، وراح يفكر فيما حدث ، وفيما يمكن أن يعنيه ، قبل أن يلتقط هاتفه المحمول ، مغمغمًا فى صرامة :

ـ لقد أصبحت عملية وقت ، وسيربح من يتحرك بأسلوب أكثر سرعة .

وضغط أزرار الهاتف ، وهو يضيف بكل صرامة الدنيا :

ـ وأكثر حزمًا .

قالها ، وذهنه يرتب خطة جديدة ..

خطة شيطانية ..

للغاية ..

* * *

بشراسة لامثيل لها ، انهالت رصاصات قتلة (المافيا) الروسية على السيارة فى غزارة مالها من مثيل ..

وفى نشوة وحشية عجيبة ، راح (أليكس) يهتف :

ـ الزعيم لا يريده حيًا .. أطلقوا النيران أكثر .. أكثر .

انطلقت من حلقه ضحكات مخيفة ، وهو يعدو مع رجاله نحو السيارة ، ويمطرونها بالرصاصات ، حتى

تحطم زجاجها ، وتحوّل جسدها إلى مصفاه ، واشتعلت النيران فى خزان وقودها ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجر خزان الوقود ، من فرط ما أصابه من رصاصات ونيران ، فاشتعلت النيران فى السيارة ، وتناثرت لمسافة حولها ، وهتف (أليكس) ظافرًا :

ـ لقد فعلناها .. لقد فعلناها .. لقد ..

بتر عبارته بغتة ، عندما لمح عدة أجساد ، ملقاه على مسافة أمتار من السيارة ، فصاح برجاله فى عصبية :

ـ مهلاً .

تحرك القتلة فى سرعة وخفة ؛ ليحيطوا بالسيارة ، فى حين انعقد حاجباه هو ، وقال فى توتر :

ـ هذه الأجساد !! إنها تبدو كما لو ...

مرة أخرى ، بتر عبارته ، وامتزج حاجباه فى غضب عارم ، وهو يهتف :

- يا للسخافة ! إنه السائق والحراس الثلاثة .

تفجّرت دهشة بلا حدود ، فى كيان قتلة (المافيا) الروسية ، وهم يحدقون فى الأجساد فاقدة الوعى ، التى تراصت عند جذع شجرة ضخمة ، وغمغم أحدهم :

- عجبًا ! لقد أخرجهم من السيارة ، حتى لا يلقوا مصرعهم !!

قال آخر فى حيرة :

- أى رجل هذا ؟!

صاح (أليكس) فى غضب :

- بل أى رجال أنتم ؟! ألا تدركون ما يعنيه هذا ؟!

استداروا إليه فى حيرة ، وكأنهم ينشدون تفسيره ، فتابع فى حدة :

- إنه يعنى أن ذلك الشيطان المصرى قد انتبه إلى الفخ ، وأنه قد فعل ما فعل ، وغادر السيارة ، قبل أن نبلغها نحن .

هتف أحدهم :

- مستحيل ؟!

عضّ (أليكس) شفته فى حنق ، وهو يقول :

منذ بدأت هذه الحرب السخيفة ، وهو يفعل كل ماكنا نتصوّره مستحيلاً .

قال أحد القتلة فى غضب :

- إذن فقد هرب منا .

أجابه (أليكس) فى صرامة :

- ليس بعد .

ثم أشار بيده ، مستطردًا فى حدة :

- لقد أتينا من الجنوب ، والسيارة كانت تسير إلى يمين الطريق ، الذى يمتدّ واضحًا أمامنا ، وهذا يعنى أنه لم يكن باستطاعته الفرار من الغرب أو الشمال .. إذن فليس أمامه سوى الشرق .

نطق العبارة الأخيرة ، وهو يدير عينيه نحو الأشجار ، التى تمتدّ شرقًا ، على نحو متشابك ، ثم أضاف فى حزم :

- هذا الاتجاه .

قال أحد القتلة فى حماسة :

- سيكون هذا من سوء حظه ، فلو أنه فعلها حقًا ، فسيعنى هذا أنه محاصر الآن ، بيننا وبين الأسوار العالية المكهربة ، لمطار المخابرات الخاص .

برقت عينا (أليكس) ، وهو يهتف :

- حقًا ؟! أنت واثق من هذا ؟!

أجابه القاتل فى حزم :

- بكل تأكيد .. إننى أحفظ هذه المنطقة عن ظهر قلب .

ازداد تألق عينى (أليكس) ، وهو يقول :

- رائع .. لقد أوقع نفسه فى المصيدة إذن .

ثم استدار إلى رجاله ، متابعًا فى صرامة وحشية :

- سنصنع قوسًا كبيرًا ، ونقتحم هذا الدغل ، بحيث لا نترك لذلك المصرى ثغرة واحدة للفرار ، وسنتقدم

على نحو انكماشى ، بحيث يضيق القوس تدريجيًا كلما تقدمنا ، حتى نطبق عليه تمامًا .

وعادت عيناه تتألقان ، وهو يضيف :

- وعندئذ ، سيكون عليه أن يختار .. إما رصاصاتنا ، أو الأسوار المكهربة .

وتفجرت من حلقه ضحكة ..

ضحكة عالية ..

ووحشية ..

* * *

نفث (يورى إيفانوفيتش) ، زعيم (المافيا) الروسية دخان سيجارته ، ذا الرائحة النفاذة ، فى بطء شديد ، وهو يتراجع فى مقعده الوثير ، داخل قبو المبنى القديم لدار القضاء ، ويفكر فى عمق ، جعل حارسته ورفيقته (زوشا) تتطلع إليه فى اهتمام مشوب بالقلق ، قبل أن تستجمع شجاعتها ، وتتنحنح مغمغمة :

- والآن ماذا ؟!

لدقيقة كاملة ، بدا وكأنه لم يسمع حرفًا واحدًا مما نطقته ، قبل أن يدير إليها عينيه فى بطء ، قائلاً فى صرامة :

- لابد أن نضرب ضربتنا اليوم .

تساءلت فى حيرة :

- أية ضربة ؟!

ألقى سيجارته بعيدًا ، وهو ينهض بحركة مباغتة حادة ، قائلاً :

- أريد (فاسيلوف) .

هتفت فى دهشة :

- الآن .

أجاب فى صرامة شرسة ، وهو يشعل سيجارة جديدة :

- نعم .. الآن .

قالت فى حيرة متوترة :

- ولكن هذا مستحيل ! الجنرال (فاسيلوف) الآن يستقبل الصحفيين ، من كل أنحاء العالم ، فى مخزن غاز الأعصاب ، الذى جرى ترميمه ، ولن يمكننا انتزاعه من هناك ، حتى ولو هددناه بالقتل .

انعقد حاجباه فى شدة ، وراح ينفث دخان سيجارته فى عصبية ، قبل أن يقول فى شراسة :

- أريد خريطة دقيقة .. بل مجموعة من الخرائط لـ(روسيا) و(أمريكا) ، و(انجلترا) .. خرائط دقيقة للغاية .. وبأسرع وقت ممكن .

قالت فى انفعال :

- سأبذل قصارى جهدى ، ولكن لماذا السرعة ؟!

أجابها فى غضب ، لم تفهم مبرّره :

- لأن الأمور تجرى بسرعة أكبر مما ينبغى ، و(كوالسكى) يؤكد أن الشكوك قد بدأت تتجه إليه بالفعل ، ولو سقط هذا الأحمق ، سيجذبنا جميعًا خلفه .

غمغمت مبهوتة :

- حقًا ؟!

تحرك فى المكان بتوتر ، لم تعهده فيه من قبل ، وهو يقول :

ـ الوسيلة الوحيدة ، لاستعادة السيطرة على الأمور ، هى أن نعلن عن وجودنا فورًا .

وعاد حاجباه يلتقيان ، مع استطرادته الوحشية :

ـ وبأعنف وسيلة ممكنة .

وعلى الرغم من أنها رفيقته ، ومساعدته ، وحارسته الخاصة ، وعلى الرغم من أن قوتها البدنية تفوق ضعف قوته على الأقل ، فقد حدّقت فيه (زوشا) لحظتها ، وكل ذرة فى كيانها ترتجف رعبًا ورهبة ..

وترتجف ..

وترتجف ..

* * *

وحشية وشراسة لامثيل لهما ، اندفع قتلة (المافيا) الروسية ، بقيادة (أليكس) ، يقتحمون الدغل ، فى هيئة

قوس منتظم ، وأسلحتهم مشهورة متحفزة ، متأهبة لإطلاق النيران ، عند أدنى بادرة للشك ..

وبكل غضبه ومقته ، هتف (أليكس) :

ـ أحكموا الحصار ، ولا تسمحوا له بالفرار هذه المرة .. أكرّر أن الزعيم لا يريده حيًا ، و ...

بتر عبارته بغتة ، عندما لمح حركة مريبة ، من خلف جذع شجرة ضخمة ، فأشار إليها ، صارخًا فى انفعال :

ـ هناك ..

قبل حت أن تكتمل صرخته ، وبرد فعل تلقائى ، استدار كل قتلة (المافيا) الروسية نحو جذع الشجرة ، الذى أشار إليه ..

وانطلقت رصاصاتهم نحوه كالمطر .. ومع دوى الرصاصات ، وارتطامها بالجذع الضخم ، ارتفعت من خلفه صرخة رعب أنثوية هائلة ، ميّز فيها الكل صوت (ناديا فيدروفيتش) ، التى صرخت :

ـ إنه أنا .. الرحمة .. أوقفوا إطلاق النار ..

ولكن (أليكس) صرخ فى وحشية :

ـ لا تتوقفوا .. إنها خدعة .

وانهالت الرصاصات على الجذع أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وتعالت صرخات (ناديا) ، وارتفعت ..

ووسط كل هذا ، راح (أليكس) يطلق ضحكاته الوحشية الظافرة ، و ..

وفجأة ، هوت على رأسه صاعقة ..

صاعقة اسمها (أدهم صبرى) ..

لقد وثب من ارتفاع سبعة أمتار ، من فوق شجرة قريبة ، ليهبط فوق (أليكس) مباشرة ..

وكانت الصدمة من العنف ، حتى إنها زلزلت كيان الروسى بأكمله ، وجعلته يبتر ضحكاته الوحشية بشهقة ألم مذعورة ، وهو يسقط مع مدفعه الآلى أرضًا ..

ومع شهقته العنيفة ، وعلى الرغم من دوى الرصاصات ، انتبه قتلة (المافيا) الروسية لما حدث ، فاستدار بعضهم إلى (أدهم) بمدافعهم الآلية ، ولكن هذا الأخير دار حول نفسه بخفة مدهشة ، وركل أقربهم إليه فى أنفه ، ثم وثب يركل الثانى فى فكه ، قبل أن ينتزع (أليكس) من سقطته بقوة فولاذية هائلة ، ويحيط عنقه بذراعه ، هاتفًا فى صرامة ساخرة :

ـ فليتحرك أول من يرغب فى تحطيم عنق هذا الوغد .

نطقها بروسية سليمة ، وبلكنة سكان (موسكو) ، حتى إن بعض القتلة قد شعر بالدهشة ، وتساءل : أمن الممكن أن يكون هذا حقًا هو المصرى ، الذى يسعون خلفه ؟!

أما (أليكس) ، فقد قاوم فى عنف ، ولكن ذراع (أدهم) كانت تزداد ضغطًا على عنقه فى قسوة ، كلما زادت مقاومته ، لذا فقد هتف بصوت مختنق :

ـ الرحمة .



أما (أليكس) ، فقد قاوم فى عنف ، ولكن ذراع (أدهم) كانت تزداد ضغطًا على عنقه فى قسوة ، كلما زاد مقاومته ..

تجاهله (أدهم) تمامًا ، وهو يهتف بـ (ناديا) :

ـ أأنت بخير ؟!

كان من الواضح أن دموعها تغرق وجهها وصوتها ، وهى تهتف :

ـ نعم .. إلى حد ما .

نقل بصره ، من الجذع الضخم ، الذى تختفى خلفه ، إلى القتلة العشرة أمامه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ والآن ألقوا أسلحتكم ، و ...

قاطعه أحدهم فى حزم :

ـ معذرة أيها المصرى ، ولكن الزعيم توقع موقفًا كهذا بوسيلة ما ، وأصدر قراراته بشأنه .

امتقع وجه (أليكس) ، وهو يهتف :

ـ لا .. الرحمة ..

ولكن ذلك المتحدث أشار إلى الباقين ، وقال وقد امتزج حزمه بصرامته :

ـ لقد قرر أن أى شىء ، أو أى شخص فى الوجود ، لاينبغى أن يعوق عملية القضاء عليك هذه المرة .

ومع قوله ، ارتفعت فوهات المدافع الآلية العشرة نحو (أدهم) ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدرس تلك المصيدة الجديدة ، التى لاتلوح فيها أية بادرة للنجاة ، فى حين صرخ (أليكس) وهو يختنق :

ـ لا .. لا .. أرجوكم .

وبكل صرامة الدنيا ، هتف القاتل :

ـ أطلقوا النار .

وفى هذه المرة ، لم تنطلق النيران كالمطر ..

بل كالسيل ..

أو أكثر هولاً .

* * *

٦ ـ الوحش الآدمى ..

ارتسمت ابتسامة دبلوماسية كبيرة ، على شفتى الجنرال (فاسيلوف)، وهو يواجه عدسات المصورين وعيون الصحفيين ، عند المخزن العسكرى ، الذى بذلت الدولة جهدًا خرافيًا ، لإخفاء كل آثار الهجوم ، الذى تعرَّض له ، فى عملية سرقة غاز الأعصاب ، وعلى الرغم من هذا ، فقد حمل صوته كل التوتر والانفعال ، اللذين يخفيهما فى أعماقه ، وهو يجيب الأسئلة ، التى تنهال عليه من كل صوب ، فى محاولة مستميتة لإشباع فضول وشكوك الكل ، وتبديد ذلك الفزع الرهيب ، الذى ساد العالم ، من أقصاه إلى أقصاه ..

ولأن الرجل ، بطبيعته العسكرية ، لم يكن مؤهلاً للقيام بدور ، إعلامى كهذا ، فقد انضمَّ إليه مسئول من مسئولى الدولة ، ووزير الدفاع الروسى ، ومندوب من المخابرات الروسية أيضًا ..

ولكن المهمة كانت شاقة بحق ..

شاقة على نحو يفوق كل التوقعات ..

فالصحف الكبرى ، ومحطات البث الضخمة ، لم تكتف بإرسال مراسليها ، ومصوريها ، وأطقمها الصحفية ، بل أضافت إليهم كومة من الخبراء ، لكشف أية ترميمات ، قامت بها الحكومة الروسية ، لإخفاء أثر الهجوم ..

لذا كان من المحتم أن يخضع الأمر كله لإجراءات أمنية شديدة الصرامة ؛ ليقتصر الحضور على المراسلين والصحفيين الرسميين فحسب ..

ولقد أثار هذا موجة من الغضب والاحتجاج ، إلا أن الحكومة الروسية ـ كعادتها ـ واجهت الأمر بمنتهى الحزم والصرامة والتشدُّد ..

ومرّ الأمر أوكاد ..

وعلى الهواء مباشرة ، شاهد العالم كله مخزن الغاز العسكرى سليمًا ، وشاهد بعض الوجوه ، التى لقيت

مصرعها فى فيلم (المافيا) ، وهى حية ترزق ، بعد أن قام البدلاء بدورهم خير قيام ، فى هذا المضمار ..

ويمكننا أن نقول إن نجاح هذه اللعبة كان له أكبر الأثر ، على نفوس الشعوب على الأقل ، لأن الحكومات كلها ـ تقريبًا ـ كانت تدرك ما يحدث ..

وفى أعماقه ، شعر الجنرال (فاسيلوف) بحنق مابعده حنق ، وهو مضطر لنفى الأمر ، الذى يسعى جاهدًا لإثباته ، لحساب (يورى إيفانوفيتش) ..

وإلى جواره ، غمغم مسئول الدولة فى إرهاق متوتر :

ـ يا إلهى ! ألن تنتهى هذه اللعبة أبدًا .

أجابه مندوب المخابرات هامسًا :

ـ اخفض صوتك بالله عليك .. هؤلاء الصحفيون لهم آذان شديدة الحساسية ، وبعض معداتهم متقدمة للغاية ، حتى لتحصى أنفاسك ، دون أن تدرى بوجودها .

غمغم مسئول الدولة فى عصبية :

ـ حقًا ؟!

أومأ مندوب المخابرات إيجابًا ، وهمس :

ـ بكل تأكيد .

ثم ربت على كتفه ، مستطردًا :

ـ والآن ابتسم ، فالكل يراقبنا .

ألقى مسئول الدولة إلى شفتيه ابتسامة لزجة ، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد .

ارتفع فى تلك اللحظة ، رنين هاتف مندوب المخابرات ، فالتقطه من جيبه بحركة سريعة وفتحه ، هامسًا :

ـ ماذا هناك ؟!

استمع وهلة إلى محدثه ، قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما ، ويهتف :

ـ ماذا ؟!

هتافه كان أعلى مما ينبغى ، مما جعل الصمت يسود المكان دفعة واحدة ، والعيون كلها تتجه إليه ، فلكزه مسئول الدولة بمرفقه ، قائلاً فى عصبية :

ـ ماذا دهاك ؟!

استدار إليه مندوب المخابرات بحركة حادة ، ووجه ممتقع إلى درجة رهيبة وهتف فى ارتياع ، وكأنه لم يعد يشعر بكل ما يحيط به ، ومن يحيط به :

ـ لقد فعلوها !

وانتقل امتقاعه إلى وجه مسئول الدولة ، ومصابيح التصوير تسطع فى وجهه المذعور ..

فما فهمه الرجل من الكلمة ، وما حدث بالفعل ، كان مهولاً ومروّعًا ..

وبحق ..

* * *

(نورنفك) ، قرية صغيرة فى أقصى الشمال الشرقى لـ (روسيا) ، تعداد سكانها ألف وثلاثمائة وستة أشخاص فحسب ، يندر حتى أن تجد اسمها على أية خريطة غير تفصيلية ، ومعظم السكان فيها يعملون فى تجارة الفراء ، وصيد الدببة ، وحيوان (المنك) ..

وفى تلك الصباح ، وعندما استيقظ سكان (نوريفك) لأداء أعمالهم ، مع نسمات الصباح المثلجة ، أدهشهم وجود سيارة صغيرة غريبة ، من تلك السيارات ذات الدفع الرباعى ، تقف فى منتصف ساحة القرية ، وكأنها نصب تذكارى جديد ، أقامه مجهول ..

ولأن سكان القرى الصغيرة يتميزون دومًا بالفضول ، وخشية كل غريب ، فقد التفوا حول السيارة ، يفحصونها ، ويتساءلون عما يعنيه وجودها هنا ، وعن صاحبها الذى تركها هكذا ، دون أن يشعر أحد بقدومه أو انصرافه ..

كل ما لاحظوه هو وجود أسطوانة حمراء اللون ، تستقر على المقعد الخلفى ، وتتصل بجهاز توقيت صغير ، له شاشة من الكوارتز المضىء ..

وعلى الرغم مما يوحى به هذا من الخطر ، فقد واصل السكان فحص السيارة ، والالتفاف حولها ، والرقم المضىء ، على شاشة الجهاز المتصل بها يتناقص ..

ويتناقص ..

ويتناقص ..

ثم فجأة ، هتف أحدهم باحتمال أن تكون هذه قنبلة ..

وعلى الرغم من أن سكان (نوريفك) لايجدون مبررًا واحدًا ، يدفع أى مخلوق إلى دس قنبلة فى قريتهم الصغيرة ، إلا أن الاحتمال أصابهم بالرعب ، فأسرعوا يبتعدون عن السيارة ، ويخلون الساحة تمامًا ، وإن منعهم الفضول من إبعاد أنظارهم عن السيارة ، وهم يختفون فى أو حول المنازل القريبة ، المطلة عليها على نحو مباشر ، أو غير مباشر ..

وفى نفس الوقت ، الذى بدأ فيه (يورى إيفانوفيتش) فى البحث عن أهداف أكبر حجمًا وأكثر تأثيرًا ، على الخرائط المفرودة أمامه ، كان أحد رجاله يبلغ القيادة العسكرية ، لمنطقة الشمال الشرقى ، بأن أول تجربة للغازات السامة وغاز الأعصاب ، اللذين تمت سرقتهما ، ستبدأ بعد دقيقة واحدة ، فى (نوريفك) ؛ للإعلان عن جدية وخطورة الأمر ..

وعلى الفور ، انطلقت فرقة محدودة من القيادة العسكرية ، الشمالية الشرقية ، فى طائرة هليكوبتر

حربية ، فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، بعد أن استحال إرسال نداء تحذيرى للقرية ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى الوحيد فيها ، والذى تم تحطيمه بوساطة مجهول ، فجر اليوم نفسه ..

وفى سرعة ، وبينما تشق الهليكوبتر الحربية السماء بأقصى سرعتها ، ويحتمى سكان (نوردفك) بمنازلهم الصغيرة ، راح العد التنازلى يتواصل ..

ويتواصل ..

ويتواصل ..

حتى حملت شاشة الكوارتز الرقم (صفر) ..

وهنا حدث الانفجار ..

انفجار محدود ، حطّم صمام الأسطوانة الحمراء ، وزجاج السيارة فحسب ، بدوى محدود مكتوم ..

ثم انتهى الأمر دفعة واحدة ..

ولثوان ، راح الكل يحدّق فى السيارة بخوف مندهش ، ويتساءل عما يعنيه هذا الانفجار ، وعما إذا كان مجرّد مقدّمة لانفجار آخر أكثر عنفًا ، أو ...

ولكن فجأة ، بدأ كل شىء ..

أحد سكان القرية ، أصابته ارتجافة مباغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، ورفع كفيه يمسك جانبى رأسه فى قوة ، قبل أن تنطلق من حلقه صرخة مكتومة متحشرجة ، ويهوى أرضًا ، والدماء تتدفّق من أنفه وفمه بغزارة ..

ولوهلة ، لم يفهم المحيطون به ما حدث ..

ثم تهاوى ثان ..

وثالث ..

ورابع ..

وأحد الجياد أيضًا ..

وهنا تفجّرت موجة من الرعب ، لا مثيل لها ..

الكل راح يعدو فى كل الاتجاهات ، فرارًا من خطر غامض مجهول ، تساقط العشرات أمامه بلا هوادة ..

وتعالت الصرخات ، والكل عاجز عن تحديد الخصم ،

الذى انتشر فى سرعة مذهلة دون لون أو رائحة ، ليحصد كل من يعترض طريقه بلا رحمة ..

الحيوانات ..

والطيور ..

والبشر ..

ولأن الغاز سريع الانتشار ، ينطلق من مركز القرية بالضبط ، فقد استغرق ثلاث دقائق فحسب ، ليتمّ مهمته عن آخرها ..

ألف وستمائة وستة ضحية لقوا مصرعهم ..

القرية أبيدت عن بكرة أبيها ، بكل رجالها ، ونسائها ، وأطفالها ، وشيوخها ، وحتى طيورها وحيواناتها ..

وعندما وصلت الهليكوبتر الحربية ، لم تجد فى القرية كلها سوى رائحة قوية ، تملأ المكان كله ..

رائحة الموت ..

والشر ..

بلا حدود ..

* * *

« خطأ يا (سامى) .. خطأ .. »

نطق رجل المخابرات المصرى (مدحت) العبارة فى توتر شديد ، وهو يجلس أمام شاشة الكمبيوتر ، فى مركز المراقبة الرئيسى ، فى قلب (موسكو) ، فالتفت إليه زميله (سامى) ، متسائلاً فى حيرة قلقة :

- أى خطأ .

أجابه (مدحت) فى عصبية :

- أن نترك سيادة العميد يواجه الموقف وحده .

سأله (سامى) فى حيرة أكثر :

- وماذا كان ينبغى أن نفعل ؟!

هتف (مدحت) فى حدة :

- نعاونه .. وبأية وسيلة .. لم يكن ينبغى أن نتركه وحده أبدًا .

تطلّع إليه (سامى) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

أنت تعلم أن هذا مستحيل .. وسيادة العميد أيضًا يعلم هذا ؛ ففى الظروف الحالية ، ينبغى أن نتابع الموقف لحظة فلحظة ، وهو نفسه أمرنا بألا نترك عملنا لحظة واحدة .

عض (مدحت) شفته السفلى فى مرارة ، متمتمًا :

ـ أعلم هذا .

ابتسم (سامى) ، وهو يربت على ظهر زميله ، فى محاولة لتهدئته ، وقال :

ـ كلانا يعلم أن سيادة العميد (أدهم) يميل دومًا إلى العمل على نحو منفرد ، لأن أحدًا لا يستطيع مواكبة مهاراته الفذة .

أطلق (مدحت) ، من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، قائلاً :

ـ إننى أعلم هذا جيدًا ، ولكننى لا أستطيع منع نفسى من القلق .

سأله (سامى) فى دهشة :

ـ ولماذا هذه المرة بالذات ؟!

صمت لحظة ، وكأنما يبحث فى أعماقه عن الجواب ، قبل أن يهز رأسه ، قائلاً فى أسى عصبى :

ـ لست أدرى .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع أزيز جهاز الاتصال ، فاستدار إليه (سامى) فى سرعة ، واختطفه فى لهفة ، ليضعه على أذنه ، ويستمع فى اهتمام ، قبل أن يهتف :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

سأله (مدحت) ، بصوت أفرغ فيه كل عصبيته وتوتره :

ـ ماذا هناك ؟!

أدار إليه (سامى) عينين زائغتين ووجه شاحب ، وهو يهتف :

ـ لقد فعلوها مرة أخرى .

سأله (مدحت) فى ارتياع :

ـ أين ؟!

أجابه (سامى)، بصوت ينافس وجهه شحوبًا :

ـ (لوس أنجلوس) .

واتسعت عينا (مدحت) عن آخرهما ..

فتوجيه الضربات القاتلة العنيفة، بهذه السرعة المخيفة، يعنى أن الخصم، الذى يواجهه العالم هذه المرة، ليس عاديًا ..

إنه وحش ..

وحش آدمى ..

مفترس ..

* * *

تُرى كم تبلغ فرصة نجاة شخص واحد، مهما بلغت مهاراته، فى مواجهة عشرة من القتلة المحترفين ؟!

أفضل جواب، يمكن أن تحظى به، من خبير محنّك، هو ما بين الصفر والواحد فى المائة ..

على أقصى تقدير ..

وقتلة (المافيا) الروسية كانوا يدركون هذا، عندما أطلقوا نيران مدافعهم الآلية، نحو (أدهم) وزميلهم وقائدهم (أليكس) ..

ولأن (يورى) قد قرأ ملف (أدهم) جيدًا، وبتركيز واهتمام شديدين، فقد أخبرهم أن (أدهم صبرى) لايميل للقتل، إلا فى أضيق الحدود ..

ولقد اقتنعوا بهذا ..

واطمأنوا له ..

وبكل شراستهم، أطلقوا رصاصات مدافعهم نحو (أدهم) ..

ولكن اللحظات، أو اللحظة التالية، جعلتهم يدركون أنهم لايواجهون شخصًا عاديًا .. بل يواجهون وحشًا ..

وحشًا كاسرًا، تمتلئ نفسه بغضب بلا حدود، ويدرك حقيقة منطقية ودينية، لا تقبل الجدل ..

الضرورات تبيح المحظورات ..

ففى موقف كهذا ، كان من المستحيل أن يتشبث (أدهم) بقواعد تقليدية ..

لذا ، فقد تحرك بسرعة البرق ، وهو يجذب عنق (أليكس) بقسوة أكثر ؛ ليصنع منه درعًا بشرية ، تلقت الموجة الأولى بأكملها ، من رصاصات قتلة (المافيا) الروسية العشرة ..

وانتفض جسد (أليكس) ، وجحظت عيناه عن آخرهما ، وهو يتلقى هذا السيل من الرصاصات ، التى ملأ دويها المنطقة كلها ، وامتزج بصرخات الرعب المتصلة ، التى عادت (ناديا) تطلقها بلا انقطاع ، من خلف جذع الشجرة ، الذى تحتمى به ..

وبحركة سريعة كالبرق ، دسَّ (أدهم) يده داخل سترة (أليكس) ، والتقط المسدس المعلق تحت إبط هذا الأخير ، وأطلق منه رصاصة ، نسفت رأس أحد قتلة (المافيا) ، وأخرى اخترقت صدر الثانى ، قبل أن يدفع جثة (أليكس) نحو الثالث ، ثم يثب جانبًا ، ليطلق النار على عنق الرابع ، وهو يتدحرج خلف

جذع إحدى الأشجار ، ويهب واقفًا على قدميه ، ورصاصات مسدسه تخترق قلب القاتل الثالث ، الذى حاول النهوض ، بعد سقطته مع جثة قائده ..

لم يكن الموقف أو الظروف يسمحان بالالتزام بقاعدة القتل عند الضرورة القصوى فحسب ..

فهذا الموقف كان يندرج بالفعل تحت بند الضرورة القصوى ..

للغاية ..

ومن بعيد ، تعالت أصوات سيارات أمن المطار الخاص ، بعد أن جذبهم دوى الرصاصات ، فتراجع قاتل (المافيا) ، الذى كان يحمل أوامر (يورى) ، وهو يهتف بالخمسة الباقين فى عصبية :

- استخدموا قنابلكم .. لاتسمحوا له بالفرار ، مهما كان الثمن .

انتزع القتلة الخمسة من أحزمتهم خمسة قنابل يدوية ،

انتزعوا قنابلها بأسنانهم فى توتر ، وهم يندفعون خلف جذع الشجرة ، الذى يختفى خلفه (أدهم) ، فى حين اندفع قائدهم نحو الجذع الآخر ، الذى مازالت (ناديا) تطلق صرخاتها المتواصلة من خلفه ، وهو يغمغم فى عصبية زائدة :

- فليكن أيها المصرى .. لكل مخلوق نقطة ضعفه ، وأنا أعرف نقطة ضعفك .

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، كان (أدهم) يثب من خلف جذع الشجرة ، ليطلق النار نحو القنبلة ، التى يحملها أحد القتلة ، ثم ينبطح أرضًا ، ويطلق النار نحو قنبلة قاتل ثان ..

وقبل أن يلقى القتلة قنابلهم ، انفجرت القنبلتان ، فى يدى الرجلين ..

ودوى الانفجاران على نحو متصل ، وامتزجا بصرخات القتلة الخمسة ، الذين مزق الانفجاران أجسادهم إلى أشلاء ..

واقترب صوت سيارات أمن المطار الخاص أكثر وأكثر ، مع تلاشى دوى الانفجارين ، ليرتفع صوت القاتل الأخير ، وهو يهتف فى غضب عصبى :

- حياتك أو حياتها أيها المصرى ..

هتف القاتل بالعبارة ، وهو يبرز من خلف جذع الشجرة ، جاذبًا (ناديا) من شعرها بمنتهى القسوة ، وفوهة مسدسه ملتصقة بصدغها فى عنف ، والمسكينة تطلق صرخات رعب وألم قصيرة متصلة ..

وفى هدوء صارم ، نهض (أدهم) ، قائلاً :

- اتركها أيها الوغد .

صرخ القاتل بكل عصبية الدنيا :

- سأقتلها .. أقسم أن أقتلها لو لم ..

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع مسدس (أدهم) بسرعة خارقة ، وانطلقت منه رصاصة ، أطاحت بمسدس

الرجل ، فصرخت (ناديا) فى رعب ، مع صوت ارتطام الرصاصة بالمسدس ، الملتصق بصدغها ، والذى ارتطم بجانب وجهها ، قبل أن يطير من يد القاتل ، الذى اتسعت عيناه فى رعب ، وهتف :

ـ لا .. مستحيل !

مع آخر حروف كلماته ، انطلقت رصاصة (أدهم) الثانية ، فاخترقت ساق القاتل ، الذى أطلق صرخة ألم مذعورة ، قبل أن تهشّم الرصاصة الثالثة يده ، الممسكة بشعر (ناديا) ، وتجبره على إفلاتها دفعة واحدة ..

ومع تناثر الدماء على وجهها ، أطلقت (ناديا) صرخة أخيرة ، قبل أن تتراجع لتلتصق بجذع الشجرة ، الذى كانت تختفى خلفه ، منذ دقيقة واحدة ، وهى تحدق فى القاتل ، الذى سقط على ركبته أرضًا ، وتبادل معها الأدوار ، فراح هو يطلق صرخات متصلة ، وهو يمسك يده المحطّمة فى ألم رهيب ، فى حين خفض (أدهم) مسدسه ، وهو يتجه نحوه فى صرامة مخيفة ، وأمسك

به من سترته ، وأجبره فى قسوة على النهوض ، وهو يسأله بصوت يجمّد الدماء فى العروق :

ـ أين أجد (يورى إيفانوفيتش) ؟!

هتف القاتل فى ذعر وألم :

ـ لست أدرى .. لا أحد يدرى ..

كرّر (أدهم) ، وهو يتطلّع إلى عينيه مباشرة ، بنظرة اخترقت كيانه كله :

ـ أين (يورى) ؟!

تعالى صوت سيارات الأمن ، التى صارت قاب قوسين أو أدنى ، والقاتل ينهار ، قائلاً :

ـ أقسم إننى لست أدرى .. لا أحد يدرى .. أنا مجرّد قاتل محترف ، تُسند إلىّ أوامر الاغتيالات فحسب .

سأله (أدهم) فى قسوة :

ـ كيف تلقيت أوامره الخاصة إذن ؟!

أجابه الرجل ، والدموع تسيل من عينيه كالأطفال :

ـ عبر الهاتف المحمول .. أقسم إن هذا كل ما أعرفه .. الزعماء الكبار وحدهم يعرفون أكثر .. أقسم لك .

هوى (أدهم) على فكه بلكمة عنيفة ، أسقطته فاقد الوعى ، قبل أن يلتفت إلى (ناديا) ، ويجذبها من يدها ، قائلاً فى صرامة :

ـ هيا .

هتفت فى انفعال ، وهى تعدو إلى جواره :

ـ هل ستتركه هكذا ؟!

أجابها فى حزم :

ـ لابد أن نترك لرجال أمن المطار مايشغلهم عنا .

لهثت فى شدة ، وهى تتطلّع إليه فى انبهار ، وهما يعدوان عبر الدغل ، قبل أن تسأله :

ـ كيف ؟! كيف فعلتها ؟!

سألها :

ـ فعلت ماذا ؟!

هتفت مبهورة :

ـ كيف هزمت وحدك ستة من القتلة المحترفين ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هذا لايدعو للفخر .. لقد اضطررت لقتل معظمهم .

قالت فى دهشة :

ـ لقد كانوا يسعون لقتلك !

أجاب فى صرامة أكثر :

ـ هم قتلة ، أما أنا فلا .

شعرت بقلبها يخفق بين ضلوعها ، وهى تحدّق فى ملامحه الوسيمة القوية ، وهو ينطق عبارته الأخيرة ، ووجدت نفسها تهتف من بين لهاثها :

ـ إنك .. إنك ..

قبل أن تلقى ما يخفق له قلبها ، توقَّف (أدهم) بغتة ، وسألها فى حزم :

- ماذا تفضلين ؟!

كان يشير إلى ثلاث سيارات من طرازات حديثة ، تختفى بين الأشجار ، عند بداية الدغل ، فحدقت فيها ، هاتفة فى دهشة :

- كيف علمت بوجودها هنا ؟!

ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

- كيف تعقبك قتلة (المافيا) فى رأيك ؟! سيراً على الأقدام ؟!

تساءلت فى دهشة أكثر :

- ولكن كيف علمت بوجودها هنا بالتحديد ؟!

أجابها ، وهو يتجه نحو السيارة الوسطى ، الأحدث طرازاً ، والأكثر قوة :

- يمكنك أن تقولى .. إنها مسألة خبرة .

اتجهت معه نحو السيارة ، وهى تلهث هاتفة :

- أنت مدهش .

لم يعلق على عبارتها ، وهو يتخذ مقعد القيادة ، ويفسح لها المقعد المجاور ، ثم ينطلق بالسيارة فور استقرارها عليه ، فسألته فى توتر :

- إلى أين ؟! (روسيا) كلها تبحث عنى وعنك الآن .

قال فى حزم :

- (روسيا) كلها منشغلة الآن ، فى قضية أكثر خطورة .

هتفت :

- أتقصد غاز الأعصاب المسروق ؟!

لم يجب تساؤلها ، وكأنما لايحتاج السؤال إلى جواب ، وإنما انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يزيد من سرعة السيارة ، عائداً بها إلى (موسكو) ، وكأنه قد قرر أن يتحدى العالم كله ، فى سبيل استعادة رفاقه ، من قبضة ذلك الوحش (يورى) ..

الوحش الآدمى ، الذى يحمل فى أعماقه جنونًا مطبقًا ..

جنونًا دمويًا وحشيًا ..

بلا رحمة ..

على الإطلاق ..

* * *



٧ ـ الجنرال ..

« (روسيا) ، و(إنجلترا) ، والولايات المتحدة الأمريكية .. » ..

نطق مدير المخابرات العامة المصرية بالعبارة ، وهو يمرّر يده على الخريطة الكبيرة ، التى تملأ أحد جدران حجرة الاجتماعات ، ثم واجه رجال المخابرات ، مستطردًا فى حزم :

ـ ثلاث قرى صغيرة أبيدت عن آخرها ، بوساطة غاز الأعصاب القاتل ، المسروق من المخزن الحربى فى (موسكو) ، مع بيان وصل عبر شبكة الإنترنت ، من موقع مجهول ، يهدّد بتدمير أهداف أكثر ضخامة ، لو حدثت أية محاولة لاسترداد الغاز ، أو تحديد هوية سارقيه .

قال أحد الرجال فى اهتمام :

ـ لقد تم الأمر بسرعة أكبر من المتوقّع .

أضاف آخر :

- وبقسوة تفوق كل التصورات .

قال المدير بنفس الحزم :

- العالم كله الآن ، بكل حكوماته وجيوشه ونظمه الأمنية ، يبحث عن الفاعل ، بمنتهى السرعة والحذر ، خشية أن يضرب ضربته فى أهداف أكثر فاعلية وخطورة .

اندفع أحدهم يقول فى صرامة :

- الفاعل شخص واضح .

قال المدير فى سرعة :

- لايوجد دليل واحد على هذا .

قال آخر فى حزم :

- ولكن هناك دليل على التورُّط على الأقل .

عبارته أسكتت الجميع دفعة واحدة ، واستدارت عيونهم إلى المتحدث ، الذى قال فى حسم :

- من الناحية العملية ، يستحيل أن تصل عبوات غاز الأعصاب إلى (انجلترا) و(أمريكا) بهذه السرعة .

عاد المدير إلى مقعده فى بطء ، وهو يقول فى اهتمام :

- ماذا تعنى بالضبط ؟!

اعتدل الرجل فى مقعده ، وهو يجيب :

- من الواضح أن عبوات غاز الأعصاب ، التى انفجرت فى (انجلترا) و(أمريكا) ، قد وصلت إلى أهدافها ، قبل أن يتمّ اقتحام المخزن الحربى الروسى فعليًا ، وهذه مسألة حسابية بسيطة ، وتعنى أن أحدهم قد قام بتسريب أسطوانات الغاز سرًا ، ثم تمت عملية الاقتحام العنيفة ؛ لتحقيق انتشار إعلامى ، وإعلان نجاح الأمر ، ولتغطية ذلك التعاون الداخلى أيضًا .

تبادل الجميع نظرات متوترة ، قبل أن ينطلق الكل لمناقشة هذا الاحتمال ..

ولم تستغرق المناقشة طويلاً ، فما هى إلا عشرون دقيقة ، حتى أدرك الكل أنه احتمال دقيق للغاية ،

وأنه من المحتم وجود تعاون داخلى ، لنجاح الأمر على هذا النحو ..

وفى حزم ، تساءل مدير المخابرات :

- السؤال الآن هو من ؟! من الشخص الذى تورّط فى هذا الأمر من الداخل ؟!

اندفع صاحب الاقتراح يقول فى حزم :

- شخص على أعلى مستوى .

استدارت إليه العيون كلها مرة أخرى ، وتساءل أحد الرجال :

- مثل من ؟! معظم كبار ضباط ومسئولى المخزن لقوا مصرعهم ، فى عملية الاقتحام .

أجاب فى سرعة :

- فيما عدا واحدًا .

ثم تراجع فى مقعده ، مستطردًا فى حزم صارم :

- الجنرال (فاسيلوف) .

هبط قوله كالصاعقة على رءوس الجميع ، فران عليهم صمت مطبق ، وراحوا يتبادلون نظرات تشفّ عن مدى خطورة الأمر ، قبل أن يعبّر المدير عن هذا بقوله :

- ما تقوله بالغ الخطورة يا رجل ، فالجنرال (فاسيلوف) من كبار قادة الجيش الروسى القدامى ، وهو مسئول عن الحرب الكيماوية ، منذ أكثر من عشر سنوات ، ويعدّ محل ثقة المسئولين وقادة الجيش وحتى السياسيين فى (روسيا) .

أجاب الرجل فى حزم :

- إنها مجرد نظرية ياسيادة المدير ، وربما تبدو عجيبة مخيفة ، ولكنها ليست مستبعدة تمامًا ، فالرجل يمتلك من الخبرات والسلطات ، ما يتيح له التعاون مع جهة ما ، لإخراج كمية كبيرة من أسطوانات غاز الأعصاب من المخازن سرًا ، ونقلها إلى أماكن شتى من العالم ، قبل أن يتمّ الهجوم فعليًا .

مرة أخرى بدا القلق على وجوه الكل ، ثم قال المدير :

ـ النظرية محتملة ، على الرغم من خطورتها ، ولكن ينبغى أن نتأكد منها ، على نحو لا يدع مجالاً للشك ، قبل أن نبلغ بها الروس ، لاتخاذ ما يلزم فى هذا الشأن .

تنحنح الرجل ، وقال :

ـ معذرة ياسيادة المدير ، ولكننى أفضّل أن نخبرهم بها الآن ، ونترك لهم حرية التصرّف ، قبل فوات الأوان .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ ولماذا التعجّل ؟!

التقى حاجبا الرجل ، وهو يجيب :

ـ لأننى أخشى لو أبطأنا ، أن نحصل على الدليل بأسلوب لن يرضى أحدا .

تساءل المدير فى قلق :

ـ أى أسلوب ؟!

قبل أن يجيب رجل المخابرات ، اندفع أحد الرجال إلى حجرة الاجتماعات ، هاتفًا فى انزعاج شديد :

ـ كارثة ياسيادة المدير .. كارثة .

هتف به المدير ، وقد أدرك من الأسلوب مدى خطورة الأمر :

ـ ماذا هناك ؟!

لوّح الرجل بذراعه ، وهو يجيب فى توتر بالغ :

ـ سلاح حرس الحدود ألقى القبض على أحد المهربين ، وفى أثناء التحقيق معه ، أورد معلومة بالغة الخطورة .

سأله المدير :

ـ أية معلومة ؟!

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، وعلى نحو يوحى بما يموج فى جسده من انفعال ، قبل أن يقول بصوت يموج بالتوتر :

- أسطوانات غاز الأعصاب دخلت إلى (مصر) بالفعل .

وتفجرت انفعالاته فى القاعة كلها بمنتهى العنف ..

فالخبر كان مخيفًا ..

ورهيبًا ..

إلى أقصى الحدود ..

* * *

لم يبد الجنرال (فاسيلوف) ، خلال تاريخه كله ، بهذا التوتر الشديد ، الذى راح يتحدث به لـ(يورى إيفانوفيتش) ، داخل مخزن قديم مهجور ، فى ضواحى (موسكو) ، وهو يلوّح بذراعيه ، هاتفًا :

- لماذا تعجلت على هذا النحو ؟! لقد أفسدت كل شىء بتسرّعك هذا .. أفسدت كل شىء .

توترت كل عضلة فى جسد (زوشا) المقتول ، فى حين واصل (يورى) نفث دخان سيجارته فى برود عجيب ، وهو يقول :

- اهدأ يا (فاسيلوف) .. اهدأ .. أنت تعلم أننا قد تخلصنا من كل من شارك معنا فى هذه العملية ، وقادتك فى حالة من الذعر الآن ، تمنعهم من وضوح الرؤية .

هتف الجنرال فى عصبية شديدة :

- ولكنك لم تكتف بضربة يمكن تبرير سرعتها ، فى قلب (روسيا) ، لكن غرورك وتعجلك دفعاك إلى توجيه ضربة للبريطانيين والأمريكيين أيضًا .

نفث (يورى) دخان سيجارته ، وهو يقول بابتسامة مقيتة :

- كان من الضرورى أن تكون الضربة قوية شاملة .

صاح الجنرال :

- وسريعة أيضًا .. لقد اتفقنا على الانتظار ليومين كاملين ، قبل توجيه الضربة الأولى .

قال (يورى) بنفس البرود :

ـ الأمور تطوّرت فى سرعة ، وكان من المحتّم أن نبدأ مبكرًا .

احتقن وجه الجنرال ، وهو يصرخ:

ـ ولكنك بهذا كشفت أمرنا .

اتسعت ابتسامة (يورى) وهو يقول بنفس البرود المستفز :

ـ ليس إلى هذا الحد .

تحسّست (زوشا) المسدس المعلّق فى حزامها ، والجنرال يصرخ فى غضب :

ـ بل أكثر من هذا الحد يا (يورى) .. التحرك المبكّر كشف أن بعض أسطوانات الغاز قد تسرّبت من المخزن مبكرًا ، وهذا يشير حتمًا إلى تواطؤ داخلى .

هزّ (يورى) كتفيه بلا مبالاة ، وهو يقول :

ـ قلت لك : إننا قد تخلصنا من كل من شارك معنا فى اللعبة .

هتف الجنرال (فاسيلوف) فى حدة :

ـ وماذا عنى ؟!

تألّقت عينا (يورى) ، ونفث دخان سيجارته فى بطء وعمق ، قبل أن يدير عينيه إلى (فاسيلوف) ، قائلاً فى سخرية وحشية :

ـ نعم .. ماذا عنك ؟!

انتبه الجنرال فجأة إلى الموقف ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وتراجع فى رعب ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ لا يا (يورى) .. لا تفعلها .

ألقى (يورى) سيجارته ، وهو ينهض من مقعده ، قائلاً :

ـ أنت قلتها يا جنرال .. لم يعد هناك سواك .

اتسعت عينا الجنرال أكثر ، وهو يهتف :

ـ لا يا (يورى) .. أنا صديقك المخلص .. أنا قائد قوات إمبراطوريتك المقبلة .. أنا ..

قاطعه (يورى) بنفس البرود الساخر الوحشى، وهو يشعل سيجارة جديدة، بثت رائحتها النفاذة أشبه برائحة القبور، فى أنف (فاسيلوف):

- أنت نقطة الضعف الوحيدة المتبقية يا جنرال .. رجال حكومتنا ومخابراتنا أذكياء، وسيكشفون أمرك، إن عاجلاً أو آجلاً، ومن الخطر، كل الخطر، أن ينكشف أمرك مبكرًا.

ارتجفت شفتا الجنرال، وسالت الدموع من عينيه دون أن يدرى، وهو يهز رأسه فى ضراعه، قائلاً:

- لا .. لا تقتلنى يا (يورى) .. ليس بعد كل مافعلت من أجلك .. أرجوك.

نفث (يورى) دخان سيجارته، وهو يبتسم ابتسامته الرهيبة، قائلا فى دهشة مفتعلة:

- أقتلك ؟! أى قول هذا يا جنرال .. إننى لن أقتلك حتمًا .. إننى لا أحمل حتى سلاحًا.

لهث الجنرال فى انفعال، وهو يهتف:

- حقًا ؟!

اتسعت ابتسامة (يورى)، وهو يقول:

- (زوشا) ستفعل.

استدار الجنرال، بكل ذعر الدنيا، إلى (زوشا)، ولكن بصره ارتطم بفوهة مسدس هذه الأخيرة، وهى تقول بصوتها الجاف، ذى النبرة الذكورية الخشنة:

- الوداع يا جنرال.

ومع قولها، ضغطت زناد مسدسها ..

وانطلقت الرصاصة ..

وبذعر وألم بلغا أقصاهما، اتسعت عينا الجنرال (فاسيلوف)، وتفجرت الدماء من ثقب كبير فى منتصف جبهته، قبل أن يهوى جثة هامدة ..

وفى هدوء، يحمل شيئًا من النشوة، أعادت (زوشا) مسدسها إلى حزامها وهى تقول:

- كان هذا تصرفًا حكيمًا.

مطّ (يورى) شفتيه، وهو يقول:

- وحتميًا.



وبذعر وألم بلغا أقصاهما ، اتسعت عينا الجنرال (فاسيلوف) ، وتفجّرت الدماء من ثقب كبير في منتصف جبهته ..

ثم أزاح جثة (فاسيلوف) بقدمه ، وهو يتجه نحو مجموعة الخرائط ، مستطردًا :

ـ والآن ، علينا أن ننتقى أهدافًا للضربة الجديدة .

قالت فى دهشة :

ـ بهذه السرعة ؟!

تألقت عيناه فى وحشية ، وهو يقول :

ـ من الخطأ أن نمنحهم فرصة لالتقاط الأنفاس .

ابتسمت ، وكأنما يروق لها هذا ، ثم تساءلت فى اهتمام :

ـ أين ؟!

كان من الواضح أن قلقها الشديد ، وعدم اقتناعها السابق بالفكرة ، قد تلاشيا تمامًا ، مع نجاح الضربة الأولى ، لذا فقد بدت شديدة الشغف ، وهى تتابع حركة عينى (يورى) على الخرائط ، قبل أن يقول :

ـ دعنا ننتقى هدفًا فى (أوروبا) ، وآخر فى (استراليا) ؛ فمن الأفضل أن يتسع التأثير ، فى أكبر مساحة ممكنة .

أشارت بسبابتها ، قائلة :

- وماذا عن (إفريقيا) ؟!

تألقت عيناه مرة أخرى ، وهو يقول :

- سأتركها للمرحلة الثالثة ، فإما أن نوقع خصمنا المصرى قبلها، أو نهديه ضربة مباشرة فى مسقط رأسه .

ثم أشار بسبابته إلى الخريطة، مضيفاً فى وحشية :

- فى (مصر) ..

نطقها ، وعيناه تتألقان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

امتزجت دهشة (مدحت) بسعادته ، وهو يستقبل (أدهم) و(ناديا) فى مركز المراقبة السرى المصرى ، فهتف فى حرارة :

- سيادة العميد ! يا إلهى ! كم شعرنا بالقلق من أجلك هذه المرة .. حمداً لله على سلامتك .

ثم تطلع إلى (ناديا) فى شىء من الحذر ، قبل أن يصافحها فى تحفظ ، قائلاً باللغة الروسية :

- مرحبًا بك يا سيدتى .. الواقع أننى لم أتوقع أبدًا أن أستقبلك شخصيًا ، فى منزلى المتواضع .

ضغط حروف كلمة (منزلى) هذه ، وكأنما يحاول إبعاد الشبهة عن المكان ، فابتسم (أدهم) ، وقال وهو يتجه نحو حجرة المعيشة مباشرة :

- لا تجعل هذا يقلقك يا رجل .. (ناديا) أصبحت مطاردة مثلنا ، وأنت تعلم أن دواعى الأمن تحتم تغيير المقر السرى سنويًا ، وأظنكم تستعدون للانتقال إلى المقر الجديد خلال أسبوعين .. أليس كذلك ؟!

ابتسم (مدحت) ، وقد أدرك مدى حكمة (أدهم) وحسن تقديره ، وغمغم :

- بالتأكيد يا سيادة العميد .. بالتأكيد .

ثم التفت إلى (ناديا) ، وأشار إلى حجرة المعيشة ، قائلاً :

- تفضلى على الرحب والسعة يا سيدتى .

زفرت (ناديا) ، وهى تتجه إلى الحجرة ، قائلة فى إرهاق شديد :

- لقد كنا أشبه بلاعبى السيرك ، ونحن ننتقل من مكان إلى مكان ، ومن سطح إلى آخر ، حتى نصل إلى هنا .

ابتسم (مدحت) ، قائلاً :

- هذا أمر طبيعى ، مادمت مع الأستاذ .

تساءلت فى حيرة تمتزج بالفضول ، وهى تتطلع إلى (أدهم) :

- الأستاذ ؟! أهذا هو اللقب ، الذى تطلقونه عليه ؟!

لم يجب (مدحت) تساؤلها ، و(أدهم) يسأله :

- أين (سامى) ؟!

أشار بيده مجيبًا :

- يحصل على قسط من النوم ، فلم يغمض له جفن ، طوال أكثر من ثلاثين ساعة .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

- هل توصلتم إلى هوية تلك المقنعة ؟!

التقط (مدحت) ملفًا ، وناوله إياه ، قائلاً :

- اسمها (زوشا مالوسكى) .. واحدة من أفراد المخابرات السوفيتية السابقة ، تم تسريحها مع انهيار الاتحاد السوفيتى وتقسيمه .. عملت بعض الوقت فى (أوكرانيا) ، كمسئولة أمن ، ثم فى (كييف) ، كمديرة لأمن مصنع كبير ، ثم اختفت منذ أربعة أعوام ، ويقال : إنها الحارسة الخاصة لـ (يورى إيفانوفيتش) ، الزعيم الحالى لمنظمة (المافيا) الروسية .

أومأ (أدهم) برأسه ، وهو يلوذ بالصمت بضع لحظات ، وكأنما يختزن تلك المعلومات فى ذاكرته ، وعيناه تدرسان ملامح صورة (زوشا) فى الملف

بإمعان ، قبل أن يلتفت إلى (ناديا) ، ويسألها فى اهتمام بالغ :

ـ والآن ، دعينا نعود لسؤالى السابق .. كيف أكملت تلك المقنعة عبارتها ، بعد أن توقف البث ، وما الذى قالته ، بعد عبارة من المؤسف أكثر هذه ؟!

هزت (ناديا) كتفيها ، قائلة :

ـ عبارة لم أفهم المقصود منها بالضبط .

اعتدل يسألها فى اهتمام أكبر :

ـ وما هى ؟!

أشارت بسبابتها ، وبصرها يذهب بعيدًا ، وكأنها تحاول تذكر العبارة حرفيًا ، وهى تقول فى بطء :

ـ قالت : إنه من المؤسف أكثر أن الألم يمكن أن يتكرر ، لو لم تتوقف عما تفعله

اعتدل (أدهم) بحركة حادة ، وتألقت عيناه ، وهو يهتف :

ـ يتكرر ؟!

نقل (مدحت) بصره بينهما فى حيرة ، وهو يقول فى حذر :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تألقت عينا (أدهم) أكثر ، وهو يدير رأسه ، ويرتد بارتياح وسعادة غامرين ، ضاعفا من دهشة (مدحت) و(ناديا) :

ـ يتكرر ! يا إلهى .. يا إلهى !

سأله (مدحت) مرة أخرى :

ـ هل يعنى لك هذا شيئًا ما يا سيادة العميد ؟!

استدار إليه (أدهم) ، مجيبًا بصوت يموج بالحيوية :

ـ بالتأكيد .. إنه يعنى الكثير .. والكثير جدًا .

تساءل (مدحت) فى حذر :

ـ مثل ماذا ؟!

لم يجب (أدهم) سؤاله ، وإنما أشار إلى التلفاز فى الحجرة ، متسائلا فى اهتمام عجيب :

ـ أين تسجيل لقاء تلك المقنعة مع (ناديا) ؟!

التقط (مدحت) الشريط ، ودسّه في جهاز الفيديو ، قائلاً في توتر :

- سيدي .. ماذا يدور في رأسك ؟!

كرر (أدهم) ، وهو يتابع شاشة التلفاز في اهتمام يفوق الحد :

- أمر عظيم يا (مدحت) .. أمر كفيل بقلب كل الأمور رأساً على عقب .

وكانت عبارته غامضة ومثيرة ..

ولكنها حتماً كانت تعني وجود تطور خطير في الأحداث ..

خطير جداً ..

* * *

انتفض جسد (ريهام) ، وهي تستعيد وعيها بغتة ، ومع الصداع الشديد ، الذي اكتنف رأسها ، تأوهت ، مغمغمة :

- ماذا حدث ؟!

شعرت بيد حانية تربت على كتفها ، وسمعت صوت الدكتور (أحمد صبري) ، يقول في هدوء :

- كل شيء على ما يرام يا بنيتي .. لقد فقدنا الوعي لبضع ساعات فحسب ، بتأثير غاز منوّم على الأرجح .

فتحت عينيها ، وهي تنهض جالسة ، وحدقت في القاعة المتوسطة ، التي ترقد داخلها .. كانت قاعة عجيبة ، خالية من النوافذ والأبواب ، فيما عدا فتحة كبيرة في السقف ، يغلقها باب من الخشب السميك ، وفي أركانها الأربعة وضعت آلات تصوير ، تراقب كل ما يحدث داخلها ، وعلى أرضيتها تراصت بعض المراتب الوثيرة ، بعدد من فيها تماماً ..

وكان الكل قد استعاد وعيه قبلها ..

(منى) ، و(قدري) ، والدكتور (أحمد) ، وزميلها (شريف) ..

وفي توتر ، تساءلت ، وهي تنقل بصرها بينهم :

- أين نحن ؟!

أجابتها (منى) ، فى توتر مضاعف :

- لسنا ندرى .. لقد استيقظنا لنجد أنفسنا هنا .

أدار الدكتور (أحمد) عينيه فيما حوله ، وقال :

- إنه يبدو لى أشبه بصومعة غلال .

زمجر (قدرى) ، قائلاً فى غضب عصبى :

- بل يبدو لى أشبه بقبر جماعى .

هتف الدكتور (أحمد) بدهشة مستنكرة :

- قبر ؟!

أجابه (قدرى) فى عصبية :

- نعم .. بدليل أنهم يتركوننا نكاد نموت جوعًا هنا .

تطلّع (شريف) إلى تلك الفتحة فى السقف ، مغمغمًا :

- لو أنهم أرادوا قتلنا ، لاستخدموا غازًا سامًا ، بدلاً من الغاز المنوّم .

زمجر (قدرى) مرة أخرى ، قائلاً :

- ربما لا يمتعهم هذا بالقدر الكافى .

هزّت (ريهام) رأسها ، قائلة :

- لست أعتقد هذا .. إنهم يحتفظون بنا لسبب ما .. ربما كضمان أخير .

زفرت (منى) ، مغمغمة :

- هذا يشعرنى بالارتياح .

استدار (قدرى) يحدّق فيها بدهشة ، هاتفًا فى استنكار :

- الارتياح ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

- بالتأكيد ، فاحتفاظهم بنا يعنى أنهم لم يوقعوا بـ (أدهم) بعد .

هتف (قدرى) فى لهفة :

- حقًّا ؟!

أجابته (ريهام) فى حماسة :

- هذا هو التفسير المنطقى الوحيد .

واندفع (شريف) يضيف :

- إننا بالنسبة لهم رهائن .. ورقة أخيرة ، يمكن استخدامها للضغط عليه ، أو مساومته ، إذا ما انقلبت الأمور لصالحه .

انعقد حاجبا الدكتور (أحمد) ، وهو يغمغم :

- هذا لو لم ينهر جسده قبلها .

تنهّد (قدرى) ، وعلت شفتيه ابتسامة ارتياح ، وهو يقول :

- المهم أنه مازال على قيد الحياة .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى صدرت قرقعة من ذلك الباب فى السقف ، فوثبت يد (ريهام) إلى حزامها بحركة آلية ، قبل أن تغمغم فى سخط ، عندما افتقدت مسدسها :

- يا للسخافة !

انفتح باب السقف فى تلك اللحظة ، وبرزت منه فوهتا مدفعين آليين ، فتراجع الخمسة بحركة حادة ، ولكن وجهًا غليظًا ظهر بأعلى ، وصاحبه يقول فى سخرية :

- اطمئنوا أيها المصريون .. الزعيم لم يصدر أوامره بقتلكم بعد .

ثم التقط جعبة كبيرة ، وألقاها من أعلى ، فى منتصف الحجرة ، وهو يتابع بنفس السخرية :

- والدليل أننا سنعلفكم ، حتى تحين لحظة الذبح .

لم يفهم (قدرى) كلمة واحدة ، من حديث الرجل بالروسية ، فقال فى عصبية :

- ماذا يقول هذا الوغد ؟!

غمغمت (ريهام) فى توتر ، وهى تتطلع إلى الرجل فى بغض :

- لقد أحضر بعض الطعام .

تطلّع (قدرى) إلى الجعبة فى لهفة ، قائلاً :

الطعام ؟! حقًا ؟!

تراجع الغليظ ، وقهقه ضاحكًا ، فى وحشية مقيتة ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلاً فى تشفٍّ :

ـ هيا .. املئوا بطونكم بالطعام ، قبل أن تلتحقوا برفيقكم الشاب ، فى أعماق الجحيم .

انتفض جسد (شريف) فى عنف ، وشهقت (منى) فى ذعر ، صارخة :

ـ هل قتلتموه أيها الأوغاد ؟! هل قتلتم (علاء) ؟!

صرخت (ريهام) :

ـ أيها الأوغاد .. أيها الحقراء .

قهقه الغليظ مرة أخرى ، وكأنما أسعده ما تركه خلفه من تأثير ، وأغلق ذلك الباب الخشبى فى عنف ، والدكتور (أحمد) يقول فى شحوب :

ـ هل .. هل قتلوا رفيقكم ؟! ذلك الشاب الرائع ؟! يا إلهى ! يا إلهى !

انفجرت (منى) باكية فى مرارة ، وترك (قدرى) جسده يسقط على مرتبته ، وقد تلاشت فجأة شهيته للطعام ، واتسعت عينا الدكتور (أحمد) ، ووجهه يزداد شحوبًا وامتقاعًا على نحو رهيب ..

أما (ريهام) ، فقد تحجّرت دموعها فى عينيها ، وشعرت بيد باردة كالثلج تعتصر قلبها فى قسوة ، من فرط ما مزّق كيانها من الحزن ، وهى تتمتم :

ـ (علاء) .. يا إلهى ! (علاء) ..

ومن أعمق أعماقها ، تصاعدت موجة رهيبة من الكراهية والمقت والغضب .. موجة جعلتها تتخذ قرارًا خطيرًا ..

قرارًا بأن تجد أية وسيلة ممكنة ، للخروج من هذا القبر ، كما أسماه (قدرى) ..

أية وسيلة ..

مهما كانت ..

ومهما كان الثمن ..

وعندما التقت عيناها بعينى (شريف) ، اللتين تحجّرت دموعهما أيضًا ، أدركت أنهما يفكران على موجة واحدة ..

موجة اسمها الانتقام ..

وبأى ثمن .

* * *

٨ ـ خطوة فخطوة ..

بكل اهتمامه وانتباهه ، تطلّع (أدهم) إلى ذلك الفيلم ، الذى عرضته (زوشا) ، والذى يبدو فيه رفاقه ، وهم يتساقطون ، بتأثير الغاز المنوّم ..

وبلا كلل ، طالع الفيلم مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

ومع بداية العرض الخامس ، هتفت (ناديا) :

ـ ما الذى تتوقّع أن تجده بالضبط ؟!

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ هل تعتقدين أن الارتجاجة الخفيفة ، فى هذا المشهد ، تعود إلى عدم ثبات آلة التصوير ، أم إلى طبيعة المكان نفسه ؟!

لم تفهم سؤاله ، ولكنها تطلّعت إلى المشهد مرة أخرى ، قبل أن تجيب فى حذر :

ـ لايوجد سبب يدعو آلة التصوير إلى الاهتزاز ، بهذا الإيقاع شبه المنتظم ، إلا إذا ..

قاطعها (أدهم) ، وهو يقول فى حزم :

ـ إلا إذا كان المكان نفسه يهتزّ بهذا الإيقاع .

أجابت فى حذر شديد :

ـ بالضبط !

أوقف المشهد على الشاشة ، ثم اقترب منها ، وأشار بسبّابته إلى جدران العربة ، التى يتساقط داخلها رفاقه ، وهو يقول :

ـ ما الشىء الذى يمكن أن يهتزّ بهذا الإيقاع غير المنتظم ، وجدرانه لها طبيعة كهذه ؟!

حارت فى البحث عن الجواب ، وهى تطالع المشهد على الشاشة ، ولكن (أدهم) اعتدل ، وتابع ، على نحو يوحى بأنه لاينتظر جوابها :

ـ عربة قطار .

هتفت فى حماسة :

ـ هذا صحيح .. إنهم داخل عربة قطار .

انعقد حاجبا (مدحت) ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أنه قد تم نقلهم إلى مكان ما .

استدار إليه (أدهم) ، قائلاً فى حزم :

ـ السؤال التالى إذن هو : إلى أين ؟!

هزّ (مدحت) رأسه فى حيرة ، وهو يقول :

ـ هل تعرف يا سيادة العميد ، كم قطارًا يتحرك من (موسكو) ، إلى كل مكان فى (روسيا) ، فى كل ساعة ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ عشرات .. ولكن كم منها يضمّ عربة خاصة ، تحمل بصمة (المافيا) الروسية .

تألقت عينا (مدحت)، وهتف، وقد فهم ما يعنيه (أدهم):

ـ واحد فقط .

ثم اتجه نحو حجرة الاتصالات، مستطردًا فى حماسة:

ـ سأجرى التحريات اللازمة فورًا .

جرت أصابعه فى سرعة، على أزرار الكمبيوتر، ولكن فجأة، ارتفع أزيز جهاز الاتصال فالتقط (مدحت) سماعته ووضعها على أذنيه، والتقى حاجباه، وهو ينصت فى اهتمام بالغ، و ...

وفجأة، هب من مقعده، هاتفًا:

ـ يا إلهى .. يا إلهى !

استدار إليه (أدهم) و(ناديا) فى تساؤل قلق، فرفع السماعة عن أذنيه، وهتف فى شحوب ممتقع:

ـ لقد فعلوها مرة أخرى ..



استدار إليه (أدهم) و(ناديا) فى تساؤل قلق، فرفع السماعة عن أذنيه، وهتف فى شحوب ممتقع: ـ لقد فعلوها مرة أخرى!

وانعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وتضاعف غضبه ألف مرة ..

فمن الواضح أنه يواجه عصابة من الوحوش ..

وحوش لا تعرف الرحمة ..

قط ..

* * *

« العالم كله أصبح يدرك هذا جيدًا .. »

نطق مدير المخابرات المصرية العبارة فى أسى ، وهو يجلس فى مكتب وزير الداخلية ، الذى أيده بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ هذا أصبح واضحًا ، بعد الضربة الجديد ، شمال (ملبورن) فى (استراليا) ، وغرب (هامبورج) فى (ألمانيا) .. آلاف الضحايا سقطوا بلا رحمة ، لمجرد إثبات القوة ..

ومطَّ شفتيه فى مرارة ، قبل أن يضيف فى حنق :

ـ ألم تتوصل أجهزة الاستخبارات العالمية إلى أية أدلة ، تقود إلى الفاعل .

هزَّ مدير المخابرات رأسه ، قائلاً :

ـ ليس بعد .. هناك نظريات عديدة ، ولكن لا أدلة بعد .

مال وزير الداخلية إلى الأمام ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ وماذا عنا ؟!

أشار مدير المخابرات بيده ، قائلاً :

ـ لقد توصلنا أيضًا إلى نظرية ، تبدو لنا منطقية للغاية ، ولكن المخابرات الأمريكية والبريطانية ترفضانها بشدة ، كما أن المخابرات الروسية تستنكر إمكانية حدوثها ؛ نظرًا لأن الجهة ، التى نتهمها بارتكاب تلك المجازر الوحشية ، مجرد منظمة إجرامية ، لم يسبق لها قط أن دسَّت أنفها فى الشئون الدولية ، كما أنه من غير المنطقى ، من وجهة نظرهم ، أن تتجاوز منظمة إجرامية حدودها

على هذا النحو ، باعتبار أن نجاح أعمالها يعتمد ، بالدرجة الأولى ، على تحاشى المواجهات المباشرة .

تراجع وزير الداخلية ، وهو يلتقط نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ رأى منطقى ، من وجهة النظر الأمنية .

هز مدير المخابرات كتفيه ، قائلاً :

ـ ربما ، ولكن شخصية زعيم المنظمة غير مستقرة ، وطبيعته متأرجحة بين العبقرية والجنون ، وليس من المستبعد أن يتجاوز حدوده ، دون أية مبررات أو مقدمات ، سوى رغبة جنونية حمقاء فى القوة والزعامة اللا محدودتين .

ابتسم وزير الداخلية ، ابتسامة العالم ببواطن الأمور ، وهو يقول :

ـ الرغبة وحدها لا تكفى .

قال مدير المخابرات فى حزم :

ـ أحد رجالى له نظرية خاصة بوجود تواطؤ داخلى ،

ولقد بدأنا جميعًا نؤيد النظرية ، بعد العثور على الجنرال (فلسيلوف) ، مسئول الحرب الكيماوية الروسى ، قتيلاً برصاصة فى جبهته ، فهذا يعنى بدء عملية تصفية كل من تحوم حوله الشبهات ، حفاظًا على سرية الأمر كله .

عاد وزير الداخلية يميل إلى الأمام ، قائلاً فى حزم مماثل :

ـ هذا يثبت التواطؤ ، ولكنه لا يثبت تورُّط زعيم تلك المنظمة الإجرامية .

تنهَّد مدير المخابرات ، وهو يومئ برأسه ، قائلاً :

ـ بالضبط .. وهذا أيضًا ما قاله مسئولو المخابرات الروسية ، والأمريكية ، والبريطانية أيضًا .

تراجع وزير الداخلية ، وحمل صوته رنة ظافرة ، وهو يقول :

ـ أرأيت !

ابتسم مدير المخابرات ابتسامة باهتة ، قبل أن يستعيد أسلوبه الرصين الحازم ، وهو يقول :

ـ دعنا من هذه التعقيدات الدولية الآن ، ولندرس ما جئتك من أجله .

نهض وزير الداخلية من خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـ آه .. بالنسبة لتلك الأسطوانات ، إننا نعتقد أنها قد عبرت الحدود من هنا ، وسط شحنة من أسطوانات الأكسجين ، التى تم تهريبها ، لصالح إحدى المنشآت الطبية الخاصة .

تابع مدير المخابرات حركة أصابعه على الخريطة ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ ألديكم أية معلومات ، بشأن الموقع ، الذى استقرت فيه تلك الأسطوانات .

تنهد وزير الداخلية ، وقال :

ـ رجالنا هاجموا تلك المنشأة الطبية ، وعثروا بالفعل على أسطوانات الأكسجين المهربة ، وتم إلقاء

القبض عل المسئولين بها ، ولكننا لم نعثر على أسطوانات غاز الأعصاب ، التى ثبت فى التحقيقات أن شخصًا مجهولاً قد تسلمها ، بعد ساعات قليلة من عبورها الحدود ، وقبل وصول السيارة التى تحملها إلى تلك المنشأة الطبية .

قال مدير المخابرات فى اهتمام شديد :

ـ لو أن لديك شخصًا واحدًا رأى ذلك المجهول ، فلدينا نحن قسم خاص ، يمكن أن يصنع صورة تقديرية له ، خلال ساعة واحدة ، من الوصف الذى سيدلى به من رآه .

زفر وزير الخارجية فى توتر ، وهو يقول :

ـ لا داعى لهذا ..

وصمت لحظة ، قبل أن يشيح بوجهه ، مستطردًا :

ـ لقد عثرنا عليه .

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يتوقع استراكة ما ، مع رد فعل الوزير ، الذى صمت لحظة أخرى ، ثم أضاف ، فى شىء من العصبية :

ـ أو بمعنى أدق .. عثرنا على جثته ..

وازداد انعقاد حاجبى مدير المخابرات فى شدة ..

فما حدث يعنى أن المخطط ، وراء كل هذا ، شخص قاس وحذر ..

للغاية ..

وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة ..

وأكثر خطورة ..

وكتداع تلقائى ، ومع صعوبة وخطورة الأمر ، وثبت إلى ذهن مدير المخابرات العامة المصرية صورة رجل واحد ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

* * *

« لا أحد يمكنه التوصل إلى شىء .. »

نطق (مدحت) العبارة فى ضيق وعصبية ، وهو يراجع التقارير ، التى وردت إلى مركز المراقبة السرى ، من كل رجل يعمل لحساب المخابرات المصرية ، فى قلب (روسيا) ، من أقصاها إلى أقصاها ..

وفى يأس ، أضاف (سامى) ، وهو يضع مسماع جهاز الاتصال على أذنيه :

ـ إنهم يتعاملون بمنتهى الذكاء والحذر ، ويحرصون على إخفاء خطواتهم بدقة ومهارة مدهشتين ، حتى إنه لايوجد أثر ، أو شاهد ، أو حتى دليل فى ورقة ما ، يمكن أن يقودنا إلى المكان ، الذى اتجهت إليه عربة القطار الخاصة ، التى نبحث عنها .. بل لايوجد حتى مايثبت وجودها على الإطلاق .

أشار (مدحت) بسبابته ، قائلاً فى توتر شديد :

ـ يا إلهى ! ماذا لو أن استنتاجنا ..

قاطعه (أدهم) فى صرامة حازمة :

ـ استنتاجنا سليم ، ولكننا نواجه عقلاً عبقريًا وحشيًا .

ثم التقى حاجباه ، وهو يضيف :

ـ ولكن أول ما يتعلمه رجل المخابرات ، هو أن لايوجد نظام محكم مائة فى المائة ، مهما كانت عبقرية واضعه .. هناك حتمًا ثغرة ما ، فى مكان ما .. شاهد لم ننتبه إليه ، أو مسئول متورط فى الأمر ، أو شخص تولى العملية ، أو ...

قاطعه (سامى) ، وهو يهتف بلهفة :

ـ (فيدور جياروف) ..

استدار إليه (أدهم) متسائلاً ، فتنحنح فى حرج ؛ لمقاطعته إياه ، قبل أن يقول فى انفعال :

ـ (فيدور جياروف) هذا واحد من زعماء (المافيا) ، ومحطة القطارات تدخل ضمن نطاق نفوذه ، وهو يتولى مسئولية النقل ، فى كل الأحوال .

تألقت عينا (أدهم) ، وهو يقول :

ـ ها هى ذى .

وعاد حاجباه يلتقيان ، وهو يضيف :

ـ الثغرة تكمن إذن عند (جياروف) هذا .

هتف (مدحت) فى حماسة :

ـ بالتأكيد .

التفت إليه (أدهم) يسأله :

ـ ألديكم معلومات كافية عن (جياروف) هذا ؟!

نهض (سامى) يلتقط ملفًا ، من مكتبة المعلومات ، مجيبًا :

ـ بالتأكيد .

تناول (أدهم) الملف ، وألقى نظرة سريعة على حجرة النوم ، التى غرقت (ناديا) داخلها فى سبات عميق ، بعد كل ما واجهته ، ثم اتخذ مقعدًا يواجه النافذة كعادته ، وراح يدرس ملف (فيدور جياروف) ، زعيم (المافيا) الفرعى ، بمنتهى الدقة والعناية ..

ففى أعماقه ، كان يدرك أن هذه المواجهة قد تقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

وبمنتهى العنف ..

ثم إنه من المحتَّم أن الأمور لن تمضى أبدًا على نحو بسيط ..

وعليه أن يستعد لكل الاحتمالات ..

كلها بلا استثناء ..

ففى معركة مع عبقرى وحشى ، مثل (يورى إيفانوفيتش) ، يحمل فى أعماقه لمحة مخيفة من الجنون ، لا يمكنك أبدًا أن تتوقع شيئًا ..

أى شىء ..

* * *

انعقد حاجبا الحارس ضخم الجثة ، المسئول عن صومعة الغلال ، التى يحتجز فيها (يورى) رفاق (أدهم) ، وهو يقول فى عصبية :

- ما الذى يفعله هؤلاء المصريون بالضبط ؟!

ابتسم زميله ، وهو ينفث دخان سيجارته فى بطء ، قائلًا :

- أراهن على أنهم يتناولون طعامهم ، بعد ساعات طويلة من النوم الإجبارى ..

هتف الضخم ، مزمجرًا :

- ولماذا فى هذه الزاوية الحرجة بالتحديد ؟!

أقلقت العبارة زميله ، فنهض فى توتر ، متسائلًا :

- أية زاوية ؟!

أشار الضخم إلى شاشة الكمبيوتر ، قائلًا فى عصبية :

- إنهم مجتمعون فى أقصى الركن ، بحيث تفقد الكاميرا فوقهم فاعليتها ، لوجودهم خارج نطاق رؤيتها ، وذلك الضخم يجلس أمامهم ، ويتناول طعامه فى نهم ، وإلى جواره صاحب المنظار ، بحيث يحجبان الآخرين عن الكاميرات الثلاث الأخرى تمامًا .

غمغم زميله فى حذر :

- ربما هى مجرد مصادفة .

ثم لوّح بذراعه ، وأضاف بضحكة عصبية :

ـ ثم ما الذى يمكن أن يفعلوه داخل الصومعة ؟!

زمجر الضخم مرة أخرى ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟!

تراجع زميله ، وهو يتطلّع إلى الشاشة ، فى شىء من الذعر ، مغمغمًا :

ـ نعم .. من يدرى ؟!

قالها ، وحدّق فى الشاشة لحظة أخرى ، ثم قال فى عصبية :

ـ لا بد أن نبلغ (زيون) .

أجابه الضخم فى خشونة :

ـ بالتأكيد .

لم تمض دقيقة واحدة على هذا القول ، حتى كان (زيون) العملاق يعدو نحو الصومعة ، وخلفه الحارسان ، وهو يقول فى غضب :

ـ الزعيم حذرنا من المتاعب ، التى يمكن أن يسببها هؤلاء المصريون .. يا للسخافة ! أقسم أن أدق أعناقهم ، لو أنهم يدبرون خدعة ما ..

أشار إلى الحارسين ، ليتأهبا بمدفعيهما الآليين ، ثم انحنى يفتح ذلك الباب ، الذى يطل على الصومعة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما شاهد (قدرى) يلتهم طعامه بنفس الشراهة ، وإلى جواره الدكتور (أحمد) ، وخلفهما (منى) و(ريهام) و(شريف) ، وقال فى غلظة عصبية :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

تجاهله الدكتور (أحمد) تمامًا ، فى حين رفع (قدرى) عينيه إليه ، وازدرد ما فى فمه ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

ـ لست أفهم حرفًا واحدًا ، من حديثك بالروسية أيها الخنزير .

لم يفهم (زيون) أيضًا حرفًا واحدًا ، مما نطقه (قدرى) ، فصاح بغضب وعصبية أكثر :

- ما الذى يحدث عندكم ؟!

أتاه صوت من خلف جسد (قدرى) الضخم ، يقول بالروسية :

- إننا نتناول طعامنا .

مع العبارة ، انزاح (قدرى) جانبا ، فبدا الثلاثة من خلفه ، يتناولون طعامهم فى هدوء وبابتسامة ساخرة ، غمغم معها (شريف) :

إنهم يراقبوننا بالفعل طوال الوقت .

تمتمت (ريهام) :

- ويتحركون بسرعة .

أضافت (منى) فى حزم :

- ويوجد مصباح واحد بالحجرة .

فهم الكل ما تعنيه ، فهمس الدكتور (أحمد) فى توتر :

- فى المرة القادمة ، عندما ..

قاطعه (زيون) فى حدة :

- فيم تتحدثون ؟!

أجابه أحد الحارسين فى حنق :

- انظر إلى ابتسامتهم .. إنهم يسخرون منا .

احتقن وجه (زيون) فى شدة ، وهو يردد :

- يسخرون منا ؟!

ثم سحب مسدسه ، واشتعلت عيناه بنيران الغضب ، وهو يستطرد فى ثورة :

- لا أحد يسخر من (زيون) .. لا أحد .

لم يفهم (قدرى) ما يحدث ، فتساءل فى حيرة :

- ماذا يفعل هذا الـ ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ضغط (زيون) زناد مسدسه ، بكل غضب الدنيا ..

وانطلقت رصاصة ..

رصاصة شقّت فراغ الصومعه ، لتغوص فى صدر (قدرى) ..

مباشرة ..

وشهقت (منى) ..

وصرخت (ريهام) ..

وتجمّد (شريف) والدكتور (أحمد) فى ارتياع ..

أما (قدرى) ، فقد اتسعت عيناه فى ألم مذعور ، وارتجفت شفتاه ، وهو يشير إلى موضع إصابة صدره ، متمتمًا والدماء تسيل منه فى غزارة :

ـ ذلك الوغد .. لقد .. لقد ..

ولكنه لم يتمّ عبارته ، فقد سقط دفعة واحدة على ظهره ..

كالحجر ..

* * *

« أعتقد أن الوقت قد حان ، لنعلن مطالبنا .. »

نطقت (زوشا) العبارة في توتر ، فاستدار إليها (يورى) بحركة حادة ، قائلاً فى غضب مستنكر :

ـ مطالبنا ؟! ماذا تعنى صيغة الجمع هنا ؟!

امتقع وجهها ، وهى تشير بيدها ، قائلة فى ارتباك :

ـ أعنى مطالبك ! لقد أخبرناهم ما يمكننا فعله .. احم .. قد أخبرتهم ، ولاريب فى أنهم يتساءلون الآن عن مطالبك .

أشعل سيجارته فى بطء واستمتاع ، وهو يقول :

ـ ليس بعد .. دعيهم يحترقون حتى النخاع أولاً .

هتفت فى عصبية :

ـ هذا غير منطقى .

انعقد حاجباه فى غضب وحشى ، فاستدركت بسرعة :

ـ بالنسبة لهم .

نفث دخان سيجارته فى وجهها بقوة ، قبل أن ينهض بغتة ، قائلاً :

ـ وهذا ما سيربكهم ويحيّرهم .

تساءلت فى حذر :

ـ ولماذا لا تعلن مطالبك فحسب ؟!

هزّ كتفيه ، وقال فى سخرية شرسة :

ـ لأن هذا يجعل اللعبة أقلّ إمتاعًا .

أدركت أن يستمتع بكل لحظة من لعبته الرهيبة ، فتراجعت متمتمة :

ـ آه .. فهمت .

رمقها بنظرة لم تفهم مغزاها ، ولم تشعر معها بالارتياح أيضًا ، قبل أن يعود إلى مقعده ، ويستغرق فى التفكير مع أنفاس سيجارته بضع لحظات ، ثم يتنهّد ، قائلاً :

ـ هل تعلمين .. فى طفولتنا ، كانوا يعتبرون (إيفان)

هو الابن الصالح ، الذى سيعلى من شأن العائلة ، ويرفع اسمها إلى عنان السماء ، أما أنا ، فقد كنت الابن العاق ، الذى سيغمس اسمها فى أوحل الأوحال .

تمتمت :

ـ مجرّد تصوّرات .

لم يبد حتى أنه قد سمعها ، وهو يتابع فى شرود :

ـ كان دائم التفوّق فى دراسته ، وشديد الانتماء للحزب ، أما أنا فلم يرق لى أسلوب التدريس الفاشل ، ولم أهتمّ كثيرًا بالحصول على شهادة جامعية ، أو بالانتماء إلى اللجنة السياسية للحزب .. أتدرين لماذا ؟!

سألته فى حذر :

ـ لماذا ؟!

استدار إليها بحركة حادة ، والتمعت عيناه على نحو مخيف ، وهو يجيب فى وحشية :

ـ لأننى كنت أعلم أننى عبقرى .

ثم هبَّ من مقعده بغتة ، وأضاف بصوت جهورى :

ـ وأننى المنتصر فى النهاية .

غمغمت فى قلق :

ـ بالتأكيد .

تحوّل بغتة إلى وحش شرس ، وهو يقول :

ـ أنا الأكثر قوة والأكثر عظمة .. أنا (يورى إيفانوفيتش) ، من سيرفع اسم العائلة إلى قمة العالم .. أنا سأجعل اسم (إيفانوفيتش) هو لقب أوّل إمبراطور لكوكب الأرض كله .

حدقت فى وجهه بذعر ، وتلاشى ذلك الشعور بالظفر ، الذى ملأ كيانها ليوم أو بعض يوم ، عندما رأت جنونه المطبق أمام عينيها بهذا الوضوح ..

إنه يفعل كل هذا ، ليثبت للعائلة تفوّقه ..

ليعلن أنه أفضل من شقيقه ..

كل هذه الوحشية ، والدماء التى أريقت أنهارًا ،

والأرواح التى أُزهقت بالآلاف ، كانت ثمنًا لعقدة طفولة ، لم تفارقه بعد ..

يا للهول !

وفى ذعر مكتوم ، راقبته (زوشا) ، وعيناه تشتعلان كالجحيم ، وهو يقول :

ـ دعهم يتغنون ليوم آخر ، ثم نضرب نحن ضربتنا الثالثة ، التى سيركع بعدها الكل ، ويعلن العالم عقبها استسلامه ، بلا قيد أو شرط .

واستدار إليها مرة أخرى بعينيه المخيفتين ، متسائلاً فى وحشية :

ـ أتعلمين أية أهداف سأنتقى هذه المرة ؟!

سألته فى حذر شديد :

ـ أية أهداف ؟!

لوّح بذراعيه فى الهواء ، وكأنه يؤدّى دورًا مسرحيًا ، وهو يهتف :

- مدن كبرى .. (لوس أنجلوس) ، و(كاليه) ، و ...

صمت لحظة ، وهو يستعرض أسماء المدن فى ذهنه ، قبل أن تبرق عيناه فى جذل وحشى ، وهو يضيف :

- و(القاهرة) .. مع تحياتى لخصمنا (أدهم صبرى) .

قالها ، وانطلق يضحك بصوت عال ..

وبأسلوب وحشى رهيب ..

وارتجف جسد (زوشا) ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ..

فالآن ، والآن فقط ، أدركت أنها تعمل مع وحش ..

وحش من أعماق الجحيم ..

أعمق الأعماق ..

* * *

مطّ (فيدور جيلاروف) زعيم (المافيا) الروسية الفرعى شفتيه ، وهو يلقى نظرة على البطاقة ، التى

قدمها إليه أحد حراسه ضخم الجثة ، مفتول العضلات ، ويغمغم :

- الجنرال (جوزيف كوالسكى) ؟! وما الذى يريده منى هذا الـ (كوالسكى) ؟!

مال عليه الحارس الضخم ، قائلاً :

- الجنرال (كوالسكى) هذا أحد أصدقاء الزعيم الكبير .

ارتفع حاجبا (جيلاروف) ، وهو يقول :

- آه .. أحد أصدقائه .

ثم ارتسمت على وجهه البدين ابتسامة مقيتة ، وهو يشير بأصابعه ، التى تكاد تسقط ، من ثقل ما تحويه من خواتم ذهبية وماسية ، وقال :

- أدخله يا رجل .. هيا .

أجابه الحارس :

- كما تأمر أيها الزعيم .

مال (جياروف) إلى الأمام فى صعوبة ، من فرط بدانته ، وقال :

- بلا سلاح .. واستعدوا لرقم ثلاثة .

رفع الحارس أحد حاجبيه ، ثم خفضه ، وابتسم ، قائلاً :

- أوامرك يا زعيمى .

تراجع (جياروف) ، واتسعت ابتسامته أكثر وأكثر ، فى حين خرج الحارس الضخم من حجرته ، وواجه (كواليسكى) ، قائلاً فى صرامة :

- الزعيم قال : دون أسلحة .

رفع (كواليسكى) ذراعيه بمحاذاة جسده ، وهو يقول فى ضجر :

- لست أحمل أية أسلحة .

أشار الحارس إلى حارسين أكثر قوة وضخامة ،

فاتجها من فورهما إلى (كواليسكى) ، وراحا يفحصانه بدقة وعناية بالغتين ، قبل أن يقول أحدهما فى خشونة :

- إنه نظيف .

أشار إليه الحارس ، قائلاً فى غلظة :

- الزعيم ينتظرك .

دلف (كواليسكى) إلى حجرة (جياروف) ، التى بدت أشبه بحجرة من حجرات قصور المماليك(*) ، حيث استقبله هذا الأخير بابتسامة كبيرة مقيتة ، وهو يقول :

(*) المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) : كانوا فى الأصل أرقاء ، جلبهم السلاطين المتأخرون من الأيوبيين ، كى يدربوا على الجندية وخدمة السلطان ، ولقد أعتق السلطان كثيرين منهم ، وارتقى بعضهم إلى مناصب رفيعة فى الدولة ، ولقد أنشأ دولة المماليك (عز الدين أيبك) (١٢٥٠ م) ، ومن أشهر سلاطينهم (الظاهر بيبرس) ، و(قنصوه الغورى) ، و(سيف الدين قطز) ، والسلطان (قلاوون) .

- مرحبًا يا جنرال .. أى رياح طيبة ألقت بك هنا ؟!

بدا (كواليسكى) غاضبًا ، وهو يهتف :

- ما الذى تفعله بالضبط يا (جياروف) ؟! تحيط نفسك بسياج منيع من الحراسة ، ثم تترك خلفك أخطاءً كالجبال ، تكفى لضياعنا جميعًا .

سأله (جياروف) فى هدوء :

- أية أخطاء ؟!

لوّح (كواليسكى) بذراعه ، قائلاً :

- المصريون كانوا يتحرون أمر الشحنة ، عندما أدركوا أنك المسئول عن كل شىء ، يختص بالنقل ، عبر السكك الحديدية .

رفع (جياروف) حاجبيه ، وهو يقول :

- الشحنة ؟! أية شحنة ؟!

هتف (كواليسكى) فى عصبية :

- اسمع يا رجل .. الأمور متوترة بما يكفى ، ولا وقت

لدينا لمثل هذه المخالفات .. أنت تعلم أننى أتحدث عن تلك الشحنة البشرية المصرية .

تألقت عينا (جياروف) ببريق عجيب ، وهو يقول :

- شحنة بشرية مصرية ؟! أى قول عجيب هذا يا جنرال ؟!

قال (كواليسكى) فى صرامة :

- القول الحق يا (جياروف) .

تراجع (جياروف) فى بطء ، وهو يتطلع إليه مباشرة ، واتكأ بمرفقه على مسند الأريكة التى يجلس عليها ، وقال :

- فليكن يا جنرال .. من الواضح أنه ما من جدوى من الإنكار .

اعتدل (كواليسكى) ، وشدّ قامته ، قائلاً :

- بالتأكيد .

ابتسم (جياروف) مرة أخرى ، وقال :

ـ وأنت ترغب فى معرفة الوجهة ، التى أرسلت إليها تلك الشحنة .. أليس كذلك يا جنرال ؟!

انعقد حاجبا (كواليسكى) ، وراوده شعور بعدم الارتياح ، مع سؤال (جياروف) الأخير ، فقال :

ـ ما الذى ترمى إليه بالضبط يا رجل ؟!

لم تكد كلمته تكتمل ، حتى اقتحم المكان بغتة ستة من العمالقة مفتولى العضلات ، وكل منهم يصوّب إليه مسدسه ، فى شراسة متحفزة ، فقال فى غضب :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط يا (جياروف) ؟!

اعتدل الروسى البدين ، وراح يلهث من فرط الانفعال والبدانة ، وهو يشير إلى أحد حراسه ، قائلاً :

ـ فليكشف ضيفنا وجهه الحقيقى .

اندفع الحارس نحو (كواليسكى) ، وجذب القناع المطاطى عن وجهه فى عنف ..

وفى وضوح ، ظهر وجه (أدهم) تحت القناع ..

وقهقه (جياروف) ضاحكاً فى ظفر ، وهو يتطلّع إليه قائلاً :

ـ الذى يعنيه هذا ، هو أن (يورى إيفانوفيتش) عبقرى حقيقى ، ويستحق عن جدارة منصب الزعيم الكبير .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ هذا التقرير سابق لأوانه أيها الوغد .

هتف (جياروف) فى سخرية :

ـ هكذا ؟!

وقهقه ضاحكًا مرة أخرى ، قبل أن يقول فى سخرية :

ـ أنت محق أيها المصرى .. هذا سابق لأوانه .

ثم مال إلى الأمام ، ولهث أكثر ، مستطردًا :

ـ فلا بد أن نضمن خروجك من الصورة أولاً .

قالها ، وتراجع فى مقعده ، واطمأن إلى أن رجاله الضخام يحولون بينه وبين (أدهم) ، ثم قال فى صرامة :

ـ اقتلوه .

وقبل حتى أن تكتمل كلمته ، تحول المكان إلى جحيم ..

جحيم حقيقى ..

* * *

انتهى الجزء الرابع بحمد الله .

ويليه الجزء الخامس بإذن الله .

(وحوش آدمية)